

تقي الدين ابن حجة الحموي

٧٦٧ هـ / ٧٧٧ هـ — ٨٣٧ هـ

بقلم محمود رزق سليم

شاعر ناثر ناقد كان صناجة
عصره ومرآة بيئته الشامية والمصرية

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج .ع .م .



تقي الدين ابن حجة الحموي





بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عصر تقيّ الدّين بن حجّة الحمويّ (١)

١ ـ الحياة السياسية

تقيّ الدين بن حجّة الحموى أحد أدباء « العصر المملوكى » ذلك العصر الذى حكمت فيه البلاد المصرية وما يتبعها من البلاد العربية ، طائفةٌ متجددة من المماليك الأتراك ثم الجراكسة، استبدّوا بالحكم دون الشعب استبداداً مطلقاً . فكان منهم سلاطينها وأمراؤها ـ أى قادة جنودها ـ وسائر هؤلاء الجنود .

وكان ذلك عقب انقضاء دولة الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ . ومن ثَمّ تتابع سلاطين المماليك على عرش هذه البلاد زهاء ٢٧٥ سنة . حتى قضى عليهم الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ، بقيادة سلطانهم سليم الأول العثمانى . فزالت دولتهم واحتل البلاد من بعدهم هؤلاء العثمانيون . فكان احتلالهم شرّ احتلال ابتليت به بلادنا الحبيبة على أيدى الغزاة الطامعين

* * *

ويرجع ظهور طبقة المماليك فى مصر ، إلى عصر أحمد بن طولون . أى منتصف القرن الثالث الهجرى تقريباً . فهو أول من جلب الرقيق التركى

(١) ابن حجة بكسر الحاء لا بفتحها . هكذا ضبطها شمس الدين السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » ج ١١ رقم ١٤٤ .

إلى الديار المصرية واستخدمه فى عسكرها[١] .

ولكن المماليك الذين كان منهم سلاطين مصر وأمراؤها وجنودها فى الحقبة التى نؤرخها ، هم المماليك الذين كانت نواتهم الأولى ، تلك الطائفة التى جلبها إلى البلاد ، الملك الصالح نجم الدين الأيوبى عام ٦٣٦ هـ .

وكان سبب ذلك أن الملك الصالح المذكور كان له أعداء مناهضون له فى الملك . فرأى أن يثبت ملكه بجنود جُدُد ، فاستكثر من شراء المماليك الأتراك من أسواق الرقيق خارج البلاد المصرية . وعنى بهم عناية كبيرة ، ونشّأهم تنشئه عسكرية ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة عند المقياس ، ليقيموا بها ، فسموا « المماليك البحرية » . واتخذ منهم فيما بعد ، أمراء دولته وقادة جنده[٢] .

فإلى يد هؤلاء الأمراء انتقل ملك مصر من بنى أيوب . وكان سبب ذلك أن الملك الصالح نجم الدين الأيوبى مات فى أثناء معركة المنصورة ، فكتمت زوجته «شجرة الدر » وكبار أمرائه خبر موته خشية أن يكون لذلك أثر فى سير الحرب . وريثما يعود ابنه المعظم توران شاه ، وكان متغيباً فى حصن كيفا . فلما عاد وصار سلطاناً ، وقع الخلف بينه وبين زوجة أبيه « شجرة الدر » وكبار أمرائه ، فقتلوه . وأقام الأمراء « شجرة الدر» سلطانة على البلاد . فلبثت قليلاً ثم نزلت عن الملك لأحد هؤلاء الأمراء وهو «عز الدين أيبك »» ، الذى ما لبث أن تزوجها ليكون ذا صلة بالبيت المالك .

ومن بعد ، أخذ كبار الأمراء يشتورون ليختاروا من بينهم سلطاناً على البلاد كلما خلا عرشها . وقد يعتلى العرش ابنُ السلطان الزائل ، ووقع ذلك فى أسرة قلاوون وبرقوق وغيرهما .

وكلما اعتلى العرشَ سلطانٌ ، استكثر بدوره من شراء المماليك الجدد . وقيل إن المنصور قلاوون اشترى نحو اثنى عشر ألف مملوك . وخصّصت

---

(١) راجع « صبح الأعشى » للقلقشندى ج ٣ تحت عنوان « من ولى مصر ملكاً قبل دولة الفاطميين » . — و « بدائع الزهور » لابن إياس ج ١ عند كلامه عن أحمد بن طولون .

(٢) راجع « خطط المقريزى » ج ٣ تحت عنوان « ذكر دولة المماليك البحرية » .



لتربيتهم طباق القلعة وأبراجها ، فكانت بمثابة كلية عسكرية عظيمة . ولعلها كانت إلى عهدها أعظم معاهد التعليم العسكرى فى العالم .

* * *

واتسعت رقعة الملك فى زمانهم حتى شملت جزءاً كبيراً موحداً من الوطن العربى ، حراً مستقلا ، يتألف من البلاد المصرية والشامية والحلبية والحجازية . بل امتدت أحياناً إلى وراء هذه البلاد ، حتى اتصلت بمدن الفرات وحصون الأناضول وأعالى السودان وأطراف المغرب ، وسواها .

وكانت مصر فى عصرهم قلباً للعالم العربى والإسلامى معاً ، وامتدّ نفوذها حتى بلغ الهند شرقاً ، والأندلس غرباً . وشغلت بمكافحة أعداء ثلاثة طامعين فيها وفى ممتلكاتها ، لما تمتاز به من موقع جغرافى هامّ ، ولما تحتوى عليه من ثروة قيمة . هؤلاء الأعداء هم : التتار الآتون من آسيا ، والصليبيون الوافدون من أوربا ، والعثمانيون الناشئون فى الأناضول . ويحدثنا التاريخ عن حروب مصر الكثيرة وانتصاراتها المتعددة ، على هؤلاء الأعداء جميعاً ، حتى فللت غرب التتار ، وكسرت سيف الصليبيين ، وردت كيد بنى عثمان . وما زالت حتى وقعت الخيانة فى جيشها ، والخلف بين طبقاتها ، والتراخى بين حكامها ، فأدى ذلك إلى كارثة الاحتلال العثمانى البغيض .

والفترة التى عاشها ابن حجة ، بين هذا العصر كله — وهى الواقعة بين سنتى ٧٦٧ هـ و ٨٣٧ هـ — من أخصب فترات العصر ، وأملئها بالحوادث السياسية فى الداخل والخارج . فقد شهد ابن حجة ، قبل بلوغه العشرين ، انتقال الملك من المماليك البحرية إلى الجركسية . وعاصر الملك الظاهر برقوقاً ، وابنه فرجاً . وشهد ثورة الأميرين « شيخ المحمودى » و « نوروز الحافظى » — وكانا من أمراء الشام — على السلطان فرج ، وهزيمته على يدهما فى معركة « اللجُّون » ببلاد الشام وإعدامه سنة ٨١٥ هـ .

وقد ولى السلطنة المصرية بعد فرج ، الخليفة المستعين بالله العباسى . فلبث

قليلا، ثم وثب عليها الأمير «شيخ»، وتلقب بالمؤيد فى العام نفسه. وكان هذا مثارًا للنزاع بينه وبين «نوروز»، فوقع القتال بينهما حتى هزم «نوروز» وجز رأسه، ومهد بلاد الشام وحلب، وعاد إلى سلطنته بالقاهرة، فلبث بها حتى مات عام ٨٢٤ هـ.

عاصر ابن حجة هذه الأحداث، كما عاصر — بعد المؤيد — سلطنة ابنه المظفر أحمد، ثم الظاهر ططر، ثم ابنه ناصر الدين محمد، الذى آلت السلطنة بعده إلى الأشرف «برسباى» عام ٨٢٥ هـ. وقد غزا «برسباى» جزيرة قبرص وأسر ملكها وعددًا كبيرًا من جنوده وساقهم إلى القاهرة فى الأغلال.

ومات ابن حجة فى أيام سلطنة «برسباى» بعد أن خدم فى دواوين الدولة ردحًا طويلا. غير أن أخصب فترات حياته هى التى عاشها فى عهد «المؤيد شيخ»[١].

٢ـ الحياة العقلية

تعدّ الحياة العقلية فى عصر المماليك، فى جملتها، امتدادًا لما كان منها فى العصر الأيوبى. فإن الدفعة الثقافية التى دفع بها البلاد صلاح الدين الأيوبى ومَنْ خَلَفَهُ، وتلك النقلة التى نقلها إليها بعد عصر الفاطميين، كان لها أثرها الهامّ البارز فى الحياة العقلية المصرية فى العصر الأيوبى. وقد استمر هذا الأثر واطّرد فى العصر المملوكى لتوافق الأهواء والأهداف فى كلا العصرين.

ومن ثم سادت مذاهب أهل السنّة فى العبادات والمعاملات، وسادت الفكرة الأشعرية وآراء السلف الصالح فى العقائد.

(١) تراجع تراجم هؤلاء الملوك فى «بدائع» ابن إياس و «النجوم الزاهرة» لأبى المحاسن، و «الضوء اللامع» للسخاوى، وفى «عصر سلاطين المماليك» لمحمود رزق سليم.



وقد كان لانتهاء الدولة العباسية ، عام ٦٥٦ هـ على يد التتار ، ولما بدا من التتار من أطماع بالغة فى ممتلكات العرب والمسلمين ، ولما اجترحوه من الفتك بالعلماء وتدمير الأسفار العلمية والأدبية ، أثر ملموس ورد فعل واضح ، دفع الحركة الثقافية فى مصر وسائر بلاد سلطنتها دفعة كبيرة ، ووجه همة الملوك والعلماء إلى ضرورة إحياء علوم الدين وإحياء ما يتصل بها من علوم اللغة العربية .

وعزز هذا الاتجاه تجديد الخلافة بمصر ، إذ أقام الظاهر بيبرس خلافة عباسية جديدة مقرها القاهرة ، أسندها إلى أحد أمراء بنى العباس الفارين من وجه التتار . فبقيت فى عقبه إلى آخر العصر ، ومنهم المستعين بالله الذى أشرنا إليه . فكان ذلك كسبًا أدبيًّا عظيمًا لمصر ، وحافزًا إلى إنعاش الحركة العلمية وإحياء علوم الدين ، ومعينًا على وضع مصر فى مكان الزعامة من العالم العربى والإسلامى .

* * *

بسبب ذلك ، وبسبب ما توافر لمصر من قوة ومال ورجال وهمة وإرادة وعزيمة ، تطلع إليها العالم الإسلامى والعربى ، باعتبارها حامية له وحاضنة وموجهة ، وباعتبارها الوارثة الشرعية للنهوض بالعلم والأدب وحفظهما بعد بغداد . وبذلك برزت العروبة فى صورة جديدة قشيبة ، وحملت القاهرة أعباءها فى تصميم وكفاية . فراعت أعداءها ، لا بقوتها الحربية فحسب ، بل بقوتها العلمية أيضًا . فمما لاشك فيه أن مصر حينذاك كانت أكثر ازدهارًا بالعلم ، ونهوضًا بحركة الإحياء من أى بلد آخر . واستطاعت أن تحفظ سلسلة العلم والأدب وتنقلها عبر الأجيال ، بعد أن أضافت إليها .

لقد بذل حكامها قُصارى جهودهم فى تشجيع العلماء ، فأغدقوا عليهم ورفعوا منازلهم ، واستشاروهم فى عليا أمورهم ، وأسَّسوا لهم دور العلم

— المساجد — لتعليم الشعب[1] . ووقفوا على ذلك أوقافًا واسعة دارّة. وشمّر العلماء عن ساعد الجد شعورًا منهم بواجبهم ، وغيرة على دينهم ، وأداء للأمانة التى حملتهم الأقدار عبئها . وأقبل أبناء الشعب يتلقون العلم فى صبر وأناة ، وفى دأب وجدّ . فازدهرت حلقاته وأنِسَتْ أوقاته ، وجذبت إليها كثيرًا من أبناء العروبة والإسلام فى مختلف الأمصار . وبذلك أصبحت القاهرة محورًا لحركة علمية واسعة النطاق ، نشرت ظلالها على كثير من الآفاق. وصار هذا العصر — بحق — عصر ازدهار الثقافة المصرية وسيادتها .

* * *

واصطبغت الحركة فى جملتها بالصبغة الدينية أكثر من غيرها . واتجهت الهمّة — كما أشرنا — إلى إحياء علوم الدين . إذ كانت الدول الإسلامية تقوم على أساس منه . فضلاً عن ترادف الأحداث التى أثارت العصبية الدينية حينذاك، فكان طبيعيًّا أن يكون لعلوم الدين مكان الصدارة. فأصبح الحديث روايةً ومصطلحًا وشرحًا ، والفقه بمذاهبه الأربعة السنية ، وأصول الفقه ، والتفسير وعلم الكلام ، ونحو ذلك ، موادَّ تعليمية أساسية لا بد لكل متعلم من تلقيها ، حتى لو تنافرت معها ميوله ، وجنحت نحو أدب أو فن . وإنك لن تجد أديباً كاتبًا أو شاعرًا ، ولن تجد طبيبًا أو مهندسًا أو حاسبًا مثلا ، إلا قد حظى من الدراسة الدينية بنصيب ، وتمذهب بأحد المذاهب الأربعة ، وأضيف اسم مذهبه إلى اسمه وتميز به ، فقيل : فلان الشافعى أو الحنفى مثلاً ، واتخذ لنفسه لقبًا مضافًا إلى « الدين » فقيل : تقى الدين أو شهاب الدين ، ونحو ذلك .

وتنزل علوم العربية — كالنحو والبلاغة — عندهم المنزلة الثانية . وهى فى جملتها وسائل وأدوات لفهم القرآن الكريم والحديث وعلوم الدين .

أمّا ما عدا ذلك من العلوم كالطب والهندسة والفلك والصناعات والفنون ،

---

(١) راجع أخبار هذه المساجد فى « خطط المقريزى » ، و « الانتصار » لابن دقماق ، و « حسن المحاضرة » للسيوطى ، و « تقويم النيل » لأمين سامى .



فقد كانت لها المنزلة الأخيرة . ولهذا تضاءلت في دور التعليم وقل المشتغلون بها . وحقًّا كانت هناك عناية ملحوظة بالطب ولا سيما في عهد المنصور قلاوون الذي شيَّد بيمارستانه المشهور للعلاج والدراسة . ولكنها عناية لم تستمر طويلاً ولم تطَّرد . ومن مشاهير الأطباء ابن النفيس وابن المغربي .

وحقًّا أيضًا أن الفنون والصناعات كانت منتشرة ، وعلى جانب كبير من الروعة والإتقان ، ويبدو هذا في العمائر والمساجد والسبل ونحوها ، وما يتراءى في مبانيها من هندسة ، وفي محتوياتها من فن ، كالمنابر والأسقف والقناديل والآيات القرآنية على حوائطها ، إلى غير ذلك . ولكن الذي نلحظه أن قصارى هذه الفنون والصناعات التلقين والمحاكاة دون أن تكون لها دُورُ تعليمٍ قائمة منتظمة .

ومن الطريف أن نشير إلى أن بعض العلماء كان يشتغل بالكيمياء ، أي بتحويل المعادن الخسيسة إلى معدن الذهب النفيس . وقصارى اعتقاد الناس في ذلك أنه ضرب من الشعوذة أو الأسطورة أو السحر . ولهذا كانوا يثيرون حول من يشتغل بها كثيرًا من الشائعات والأراجيف .

وطبيعي — بعد ما بيناه — أن تتابعت أجيال العلماء من متخرجي المساجد وكثروا . ويعرفون بالمتعممين . وأكثرهم من رجال الدين الفقهاء . أمَّا الأدباء الشعراء والكتَّاب ، فقد كانوا أقلّ عددًا منهم . وأقلُّ من الفريقين علماء الكونيات والمعقولات وأهل الفن والصناعة .

وكان النابغ في الفقه يجد مجال العمل واسعًا في القضاء والتدريس والإمامة والخطابة ، والنابغ في الكتابة والأدب يجد مجال العمل في دواوين الإنشاء .

وعلى نمط من هذا كان النتاج التأليفي . فقد كثرت المؤلفات الدينية كثرة ملحوظة ، وبينها موسوعات عظيمة القيمة . وهي جميعًا من أهمّ المراجع اليوم في أبوابها . أمَّا المؤلفات اللغوية والأدبية فإنها كانت أقلّ عددًا وأضيق أفقًا . هذا باستثناء معجمات اللغة وكتب التاريخ والخطط ، لأن ما وضعه منها حينذاك

أدباء مصر والشام محل إعجاب وفخر . كلسان العرب لابن منظور ، والعبر لابن خلدون ، والدرر لابن حجر ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، والخطط للمقريزى .

هذا هو التعليم الشعبى ونتاجه . ودُورُه هى المساجد التى ظلت لها وظيفتها التعليمية كما كانت من قبل . وإلى جانبه كان التعلم العسكرى الذى أشرنا إليه فى مطلع حديثنا . وهو مقصور على جنس المماليك وطوائفهم المجلوبة من الخارج باطراد . وكانوا يقيمون فى طباق القلعة ويتلقون فنون الحرب كركوب الخيل ولعب السيف وضرب الرمح ونحو ذلك .

وإلى جوارهما كان عدد كبير من الخوانق والربط والزوايا . وكانت فى أول أمرها تنشأ لإيواء الغرباء ، فأصبحت يقيم فيها رجال الصوفية ، وتدرس بها بعض دروس الدين . فكانت كأنها دور تعليمية للرياضة الروحية . وشجع على الاندماج فيها ، عناية كثير من السلاطين بها ، وما وقفوا على أهلها من أوقاف ، واختيار أفاضل من علماء الدين لمشيختها . ولعل ذيوع هذه النزعة الصوفية عدوى سرت إلينا من الأتراك ، إذ يكثر فيهم من ينزع هذه النزعة أو من يعتقد فى أصحابها . ومن أشهر خوانق القاهرة خانقاه سعيد السعداء والخانقاه البيبرسية .

وكانت نتيجة ذلك كثرة الصوفية واتساع جاه بعضهم وسيطرتهم على بعض رجال الدولة ، وجرأتهم على تحدى العلماء ومجادلتهم ، والاستعداء عليهم عند الخلاف . وفى تاريخ الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى ومحاكماته أدلة كثيرة على ما نقول[١] .

على أن الاشتغال بالتصوف أو بالنظر فيما وراء الطبيعة ، لم تتح له حياة من العمق والدقة والرتابة والحرية ، تصل به إلى درجة التفلسف . وقد يكون سبب ذلك شدة سيطرة النزعة الدينية ، وتأبّى العقلية المصرية أو العربية على

---

(١) راجع ترجمة عز الدين بن عبد السلام فى « طبقات الشافعية » للتاج السبكى . وترجمة ابن تيمية الحرانى فى « جلاء العينين » للألوسى . وراجع ترجمتهما أيضاً فى « عصر سلاطين المماليك » لمحمود رزق سليم ، المجلد الرابع .

الخلوص إلى النظر المجرد عن الحياة الواقعة . ولذلك لم ينشأ فى البلاد فلاسفة لهم شأن .

ولعلّ مما يعوض ذلك ما ثار بين الفقهاء والكلاميين من آن لآخر ، من مناقشات مذهبية ومجادلات كلامية بلغت أحيانًا من الحدة والروعة والصرامة مبلغًا عظيمًا. تارة تكون مناظرات شفوية أو فتاوى ورسائل تأليفية ، تتناول رأيًا فى الفقه ، أو مسألة فى العقيدة . ومن أمثل هذه المناقشات ما وقع بين تقى الدين بن تيمية الحرانى الحنبلى وبين مناظريه من مجادلات حول موضوع الحلف بالطلاق ، وزيارة القبور والاستعانة بالمقبور ، وغير ذلك .

وتناولت المجادلات عقائد غيرهم من الشيعة والجهمية والمعطلة والنصارى وغير ذلك . ومكتبة هذا العصر مملوءة بالكتب والرسائل والأخبار عن هذه المجادلات .

بسبب هذا وذاك علت منازل العلماء عند الخاصة والعامة على السواء، فضلاً عمّا اتصف به كثير منهم من زهد وتقوى وورع ، ومن تمسك بالحق عن فهم ودراية ، لا عن جهل ومكابرة ، ومن تصدّ لتبصير الناس بشئون دينهم ودنياهم. فكانوا بذلك خير قدوة ومثال .

وفرضت اللغة العربية نفسها على دواوين الدولة ، فكانت اللغة الرسمية . لأنها لغة السواد الأعظم، ولأن التركية كانت عاجزة ، إلى هذا العهد ، عن أن تنهض بحاجة الدواوين وغيرها ، قياسًا إلى العربية . ومن ثم صارت الفصحى لغة الرسائل والأحكام والفتاوى والمؤلفات والأدب والشعر والخطابة . وبقيت عاميتها لغة للتخاطب. وكتبت للغة بذلك كله حياة جديدة فى هذا العصر التركى . وصدرت بها رسائل السلطان وأوامره عن ديوان الإنشاء الذى كان رئيسه وكتّابه يختارون عادة من أنبغ أهل الأدب والعلم والكتابة . وكانت وظائفه سبيلاً إلى المال والجاه والنفوذ، حتى إن رئيسه كان أحيانًا مدبّر الدولة والمتصرف فى شئونها نيابة عن السلطان . لذلك نشط أدباء الكتابة والإنشاء وجوّدوا صناعتهم وتتابعت طبقاتهم ، ونبه شأن بعضهم حتى عُدّ بين أفذاذ

الرجال كمحيي الدين بن عبد الظاهر، وشهاب الدين الحلبى، وشهاب الدين بن فضل الله العمرى، وعلاء الدين بن الأثير، وناصر الدين بن البارزى، وتقى الدين ابن حجة الحموى. وما تاريخهم إلا صفحات مجيدة فى حياة الكتابة العربية.

وكانوا يتبعون فى أساليبهم طرق متقدميهم من أهل الصناعة البديعية، ولاسيما القاضى الفاضل [١] وعلى نسق من ذلك سار شعراء العصر فى أساليبهم، فضربوا فى كل وادٍ بسهم، وكانوا ألسنة عصرهم وبيئتهم إلى الأجيال، على الرغم مما لا قوه من نكران المنزلة وتفاهة التشجيع.

ونشير هنا إلى أن تقى الدين بن حجة الحموى كان أحد شعراء العصر، كما كان أحد منشئيه.

ويعد الجيل الذى عاش فيه ابن حجة، من أكثر أجيال العصر ازدهاراً بالعلماء والأدباء، ولاسيما عصر الملك المؤيد «شيخ»، الذى بنى مدرسته الشهيرة بجوار باب زويلة، عام ٨١٩ هـ، واحتفل بافتتاحها احتفالا شائقاً. وممن زاول فيها التدريس: ابن حجر العسقلانى، وبدر الدين العينى، ويحيى ابن محمد البجائى، وعز الدين عبد العزيز بن على البغدادى، وشمس الدين الديرى، وغيرهم [٢].

٣ ـ الحياة الاجتماعية

والسَّواد الأعظم من سكَّان هذه السلطنة المملوكية الواسعة، كان من الجنس العربى وسلالاته المنحدرة من أجياله السالفة منذ الفتح العربى. امتزجت

(١) القاضى الفاضل هو عبد الرحيم البيسانى. كان وزيراً لصلاح الدين الأيوبى، وفقيهاً عالماً وأديباً كاتباً وشاعراً وله منهج فى الكتابة الإنشائية معروف، أساسه البديع. وتوفى عام ٥٩٦هـ.

(٢) راجع «حسن المحاضرة» للسيوطى فى أخبار المدارس. و «عصر سلاطين المماليك»، المجلد الثالث تحت عنوان «العناية باختيار العلماء».



بها بقايا الأجناس الأخرى التى عاشت بمصر قبل هذا الفتح . وهم كثرة من الأقباط ، وقلة من اليهود والعجم وغيرهم من رواسب هذه الأجناس .

وقد أسلم كثير من الأقباط وغيرهم ، أفرادًا وأسرًا ، ذكرتهم كتب تراجم الأعلام[١] ومنهم من نبغ فى فقه أو أدب أو سياسة أو حساب أو غير ذلك ، حتى شارك البلاد فى عليا أمورها فى دواوين الدولة أو خارج هذه الدواوين .

وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء عاشت الطبقة الحاكمة من المماليك الأتراك أو الجراكسة ، ومنهم السلاطين والأمراء وعامة جنود الدولة ، عاشت أكثر ما عاشت مترفعة فى جملتها عن طبقات الشعب الأخرى . وندر أن وقع بين هذين الطرفين صلات مصاهرة ونسب ، وإذا كان شىء من هذا قد وقع فلم يكن على نطاق واسع . . . ولهذا لم يستطيعوا أن يُتَرِّكُوا الشعب العربى بسلائل مهجنة . أما هذا التهجين الذى شاهدناه فى السلالات المصرية ، فالغالب أنه أخذ يزداد ويكثر منذ الفتح العثمانى لمصر ، لما طغت العناصر التركية ونحوها ، واندست بين جماهير الشعب ، وأقبل الجميع على التصاهر .

وكانت طبقات الشعب على ما يرويه المقريزى ست طبقات وهى : « أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة . والباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب البز » ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة . وأهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف . والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة . وأرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن . وذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم[٢] . »

كانت هذه الطبقات فى جملة أمرها مستكينة مستسلمة للطبقة الحاكمة الطاغية ، منطوية تحت كلمتها . وبينما كانت هذه الطبقة المستأثرة بالمناصب

---

(١) ومنهم أسرة ابن الجيعان ، وابن مكانس . راجع تراجمهم فى « الدرر الكامنة » و « الضوء اللامع » و « شذرات الذهب » .

(٢) إغاثة الأمة للمقريزى .

العسكرية ، ومن يتصل بها من كبار الموظفين كرؤساء الدواوين وكبار الكتّاب وقضاة الشرع ، ينعمون بالمال والجاه والسيطرة ، ويعيشون عيشة مترفة ، إذ كانت الطبقات الأخرى فى جملة أمرها ، وباستثناء أهل اليسار من التجار ، تعيش فى ضنك وفاقة وشظف . ولا سيما أهل الفلح — أى الفلاحون — الذين كانوا يقيمون فى الإقطاعات . فقد كانوا أقل مستوى من الأرقّاء ، إذ كانوا عبيداً قِنّاً — أى هم وأبواهم — لا يباعون ولا يُشتَرَوْن ، ولا يسمح لهم بالانتقال . أمّا الأرقّاء فقد كانوا يباعون ويشترون وينتقلون . وبذلك كانوا كأنهم يغيّرون سادتهم ويبدّلون محلاتهم . كما أنهم قد يصيبهم العتق يوماً ، فيتمتّعون بما يتمتّع به أحرار الرجال .

واتبعت الدولة فى تشكيل[1] دواوينها نظماً قريبة الشبه بما كان فى عصر الأيوبيين . فكان منها مثلاً ديوان الجيش وديوان الإنشاء . وتقسّمت البلاد إلى «نيابات» يحكم كل نيابة منها أمير من كبار الأمراء يقال له «النائب» أو «الكافل» . والنظم الإدارية فى كل نيابة صورة مصغرة للنظم الإدارية فى القاهرة العاصمة . وينتقل الموظفون ، وبخاصة كبارهم ، من نيابة إلى أخرى بأوامر سلطانية ، فمن دمشق إلى حلب إلى صفد إلى القاهرة ، وهلمّ جرّاً . فكان هذا أحد المظاهر البارزة الدالّة على اندماج هذه الأقطار العربية وتماسكها ، وعلى الشعور العميق بالقومية العربية .

والسلطان رأس هذه الدولة ومحور سياستها ، والمصدر الوحيد للسلطة فيها ، فهو الذى يملك الأرض ويوزّع الإقطاع ويعتق الجنود الأرقّاء ، ويرقّى الأمراء ، ويقلّد المناصب ويعلن بالحرب ، ويأمر بالعزل والمصادرة والسجن والإفراج والغرامة ، ويفرض الضرائب ، إلى غير ذلك .

ومما شاب هذه الحياة ، حرمان الشعب ماله ، وإغداق هذا المال على

---

(١) راجع وظائف هذه الدولة ودواوينها واختصاصاتها فى «خطط المقريزى» . وفى كتاب «معيد النعم ومبيد النقم» لتاج الدين السبكى .



رجال الطبقة الحاكمة ، يبذرون فيه بسفه وحمق ، على تمين اللباس وناعم الفراش وأنيق الطعام. هذا إلى فداحة الضرائب أحيانًا كثيرة وبلوغها حد الإرهاق، وتفشّى الرشوة فى الدواوين ، حتى إن بعض السلاطين والأمراء كان يمدّ يده للرشوة ويساوم عليها، لقاء تعيين فى منصب ، وبخاصة مناصب القضاء، وسعى بعض قضاة الشرع إلى التعيين عن هذا الطريق .

وشاع بين كتّاب الدواوين طائفية حمقاء ، وسرقات لأموال الدولة . وقد ألمع شرف الدين البوصيرى الشاعر المتصوف بذلك فى بعض قصائده الفريدة .

ولا ريب أن هذه الضروب من الفساد وأشباهها ، كانت فى مقدمة عوامل القلق والاضطراب بين طبقات الأمة ، ولُوثة أصابت أداة الحكم ، وقضت عليها أخيرًا.

إلا أن العصبية الدينيّة كانت، إلى جانب هذا كله ، على أشدّها . ولم تكن عصبية جاهلة طامعه، ولكنها عصبيّة متبصّرة واضحة الأسباب محدّدة الأهداف نبيلة الوسائل . فقد كانت لها عواملها المثيرة التى جعلتها ضرورة حياة لامحيد عنها للأمم العربية والإسلامية على السواء. فقد اجتمع عليها جملة من الأعداء ، أعداء العروبة وأعداء الإسلام معًا . لقد طغى سيل التتار الجارف آتيًا من الشرق، من أواسط آسيا محطمًا فى طريقه ما يصادفه من عروش المسلمين وممتلكات العرب . وكان التتار فى أول أمرهم وثنيين أمّيين جهلاء، وغزاة طغاة سفاكين للدماء : وهبّت عليهم رياح الصليبيين آتية من الغرب، تطوف أوربا وتحرّض وتجمع جموع السفاكين باسم الصليب ، وتقذف بهم على الشرق العربى تحت ستار حماية الأراضى المقدسة . ولم تنفعهم الدروس التى ألقيت عليهم قبل هذا على يد صلاح الدين الأيوبى وغيره.

بهذا وذاك اتّقدت حماسة المصريين والعرب كافة فى مختلف أمصارهم ، واشتعلت بينهم العصبية الدينية وثارت الحمية الإسلامية . وما كان ينبغى لها إلا أن تشتعل وتثور . فهبّوا يدفعون عن أنفسهم وعن أوطانهم ، هذه الأخطار

التى تهددهم من الشرق والغرب ، وتنذرهم بالموت والزوال.

وقد عاشت معهم هذه العصبيّة الدينيّة الثائرة طول العصر باعتبارها عاملاً حيويًا هامًا يقوم بدوره الضرورى لحفظ حياتهم وحياة أوطانهم . فكانت هذه العصبيّة من خير الدعائم التى ارتكزت عليها القومية العربية فى ذلك الحين ، ودفعت جموع الشعب فى كثير من حروب الدولة إلى الوقوف بجانب الجيش وشدّ أزره . وركزت أهدافها فى مكافحة هؤلاء الأعداء الغزاة الطامعين .

وعاشت الطبقة الحاكمة مستبدّة مستعلية، فى أجوائها الخاصة. ولها — فيما عدا مغامراتها فى الحروب، ومزاولتها شئون الحكم — مجالاتها ومحافلها أو مباذلها وملاهيها. فقد حدّثوا مثلاً أن السلطان المظفر « حاجى » كان يتلهى بتربية الحمام واللعب به. وأن الناصر فرج بن برقوق كان محبًا لشرب الخمر قليل الحرص على الدين. وأن المؤيد شيخًا المحمودى كان يتلهى بالموسيقا ونظم الشعر . وأن الأشرف الغورى كان ولوعًا بإنشاء البساتين وغرس الفاكهة وكان محبًا لمجالسة العلماء يتلهى بالحديث معهم ومجادلتهم . وأن كثيرًا من السلاطين والأمراء كانوا يمارسون ضرب الكرة على ظهور الخيل فى مواسم محددة . إلى غير ذلك :

أمّا طبقات الشعب فقد كانت لها هى الأخرى مباذلها وملاهيها ، كالغناء والرقص ، ومشاهدة طيف الخيال — خيال الظل[1] — والتفرج بمنازه بركة الرطلى وغيرها. والخروج إلى مشاهدة دوران المحمل قبل نسوله إلى الحجاز ، أو إلى الاحتفال بعيد وفاء النيل وجبر الخليج وتفننهم بذلك ، هذا إلى ملاعبة النساء والجوارى والغلمان — وقد كانوا كثرة فى ذلك الحين لذيوع الرق — وتعاطى الخمر والحشيش . إلى غير ذلك من المباذل . وقد ردّد الشعراء وأرباب الزجل والكتّاب أخبارها وأخبار مغامراتها فيما كتبوه أو نظموه . وترى هذا ماثلا

---

١ — طيف الخيال : لعبة من ألعابهم مؤداها تمثيل قصة على شاسة مضاءة بوساطة دمى . ولابن دانيال الموصلى المتوفى عام ٧١٠هـ كتاب « طيف الخيال » به بعض قصصه التمثيلية .



ـ مثلا ـ فى ديوان ابن الوردى وابن نباتة وفى مقامات الشاب الظريف والصلاح الصفدى والجلال السيوطى ، وفى « طيف الخيال» لابن دانيال الموصلى .

والحق أن المصريين حينذاك درجوا على تقاليد وعادات لا يزال كثير منها متوطنًا فى مصر حتى اليوم . ومن ذلك احتفالهم البالغ بالمواسم والأعياد الدينية ، ومبالغتهم فى تناول الأطعمة والأشربة بهذه المناسبات . وتمسكهم باعداد الكعك وما إليه فى عيد الفطر ، على الرغم من الإعسار . وإحياء موالد الأولياء والصالحين فى كل عام . واهتمامهم الشديد بفيضان النيل وعيد وفائه وكسر خليجه . وفى عيد الوفاء يركب السلطان أو نائبه ، ومعه الخليفة وقضاة الشرع الأربعة فى زينة حافلة وأبهة كاملة ، وحوله أمراؤه وجنوده ، وييمم شطر المقياس بالروضة حيث يقام احتفال بذلك عظيم ، ويشارك الشعب فيه مشاركة صاخبة ، فتنطلق أغانيه وتدور حلقات رقصه . وعلى نسق من هذا كانوا يحتفلون بخروج المحمل إلى الحجاز .

وبمقارنة هذا بما عندنا اليوم من العادات والتقاليد نرى مبلغ ما ترسب فى مجتمعنا من عادات هذه المجتمعات البعيدة وتقاليدها[١] .

(١) راجع كتاب « المدخل » لابن الحاج ، فيه كثير من هذه العادات والتقاليد .



الفصل الثانى

تقىّ الدّين بن حجّة الحموىّ فى عصره

١ ــ مدينته

مدينة « حماة[1] » التى ولد فيها تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى ، تقع فى شمال سوريا . وهى قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، بنحو ألفين وخمسمائة عام . وقد سكنها أقوام متعدّدون على توالى العصور . منهم الآراميون والكنعانيون . ودخلت فى حكم الفراعنة والآشوريين . ثم ملكها الإسكندر الأكبر ثم الرومان . وفتحها العرب فى سنة ثمانى عشرة هجرية ، بقيادة أبى عبيدة الجراح فاتح الشام . فانتشر بها عقب ذلك الفتح ، الدين الإسلامى واللغة العربية وآدابها ، وذلك بانتشار جوالى العرب بها واستيطانهم فيها . واستمر ذلك حتى اليوم . وتناوب حكمها من بعدُ الأمويون فالعباسيون فملوك السلاجقة .

وما زالت مدينة حماة ، حتى قامت دولة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى عام ٥٤١ هـ فملكها . ثم ملكها مع بلاد الشام صلاح الدين الأيوبى البطل الإسلامى المشهور . وكان إذ ذاك ملكًا على مصر . وبذلك ظلت حماة مع سائر بلاد الشام فى نطاق السلطنة المصرية طيلة الحكم الأيوبى .

وورث المماليك ملك مصر بعد الأيوبيين ، وامتد سلطانهم إلى بلاد الشام وغيرها ، فكانت مدينة حماة فى جملة مدنها .

ومن أهم حكام حماة ، الملك المظفر تقى الدين عمر ، وهو من أمراء الأيوبيين . ولاّه عليها صلاح الدين الأيوبى نائبًا عنه . وفى عهده اتسع

---

(١) راجع « تاريخ حماة » للصابونى ، و « معجم البلدان » لياقوت ، و « ثمرات الأوراق » لابن حجة .

اختصاص حماة الإدارى ، حتى امتدّ إلى مدن كثيرة صارت تابعة لنيابتها ومنها : منبج والمعرة واللاذقية والسويداء . واستمرت سلالة المظفر تحكم مملكة حماة نوّابًا عن سلطان مصر ، حتى آلت سلطنة مصر إلى أمراء المماليك . فظلت حماة فى زمانهم نيابة من نيابات السلطنة المصرية يولى عليها سلطان مصر من يشاء من أمرائه الأتراك .

ولما آلت سلطنة مصر إلى الناصر محمد بن قلاوون ، ولّى فى نيابة حماة أميرًا من سلالة المظفر عمر ، وهو الأمير إسماعيل . ومنحه الناصر ألقاب الملك تكريمًا له وتمييزًا عن بقية نواب السلطنة . فتلقب بالمؤيد وعظمت مهابته . وكان عالمًا فاضلا ، وشاعرًا كاتبًا ، ومؤلفًا مؤرخًا ومقوّمًا ، وهو المعروف بأبى الفداء . وكتابه فى التاريخ مشهور ويعرف بتاريخ أبى الفداء وهو «المختصر فى أخبار البشر» . وكان يضمّ إلى حاشيته عددًا من رجال العلم والأدب .

وتوفى أبو الفداء عام ٧٣٢ هـ فعين الناصر مكانه ابنه الملك الأفضل . ثم ما لبثت نيابة حماة أن عادت إلى يد أمراء السلطنة .

وابتليت حماة فى عهد المماليك بحملات التتار المتتابعة فلحقها من شرورهم ضرر كثير .

وتقع حماة — كما أشرنا — فى شمال الشام . وهى فى شمال حمص ، وجنوب المعرة ، ويجرى فى وسطها نهر العاصى . وكانت عليه جسور عدة ، وبالمدينة كثير من السواقى والنواعير التى تستنبط المياه من الآبار ، وكثير من الطواحين الهوائية . ويحيط بها بعض القرون الجبلية ، وتجمّلها بساتين عدة .

وفى عصرنا الحديث تطامن بنيانها وتناقص عمرانها ، بعد أن كانت فى مقدمة مدن الشرق مدنية وحضارة .

واشتهر من بين أهلها أسر عدّة ، أنجبت بكثير من العلماء والفضلاء والأدباء الممتازين . ومنهم فى عصر المماليك :

عبد العزيز الأنصارى ، ويعرف بشيخ شيوخ حماة ، وكان عالمًا فقيهًا

شاعرًا مجيدًا . ويحيى الخباز الشاعر الأديب، والقاضى محب الدين الحموى ، وتقى الدين الخيثمى الفقيه الحنفى شيخ تقى الدين بن حجة . وأبو الثناء محمود الشافعى خطيب الدهيشة . ومنهم أبناء البارزى وعلى رأسهم ناصر الدين محمد بن البارزى الذى صار رئيس ديوان الإنشاء بالقاهرة فى عهد المؤيد شيخ ، وكان صديقًا حميمًا لتقى الدين بن حجة[١] .

وقد ألهمت هذه المدنية وأوديتها بعض الفضلاء فنونًا من الأدب طريفة . وقد وفد عليها الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة فى زمان ملكها المؤيد إسماعيل وابنه الأفضل ، فألهمته مغانيها ومجانيها وأحراجها قصائد خالدة من أروع ما نظمه يراعه . ومن ذلك أرجوزته البارعة « مصائد الشوارد » فى أكثر من مائتى بيت ، وصف فيها الصيد والقنص فى أودية حماة ، وأشاد بمناظرها الطبيعية :

فى هذه المدينة الحافلة بتاريخها ، الآهلة بفضلائها ، الكريمة بإلهاماتها ، ولد تقى الدين بن حجة الحموى وتثقف . فنبهت خاطره إلى كثير من روائعه ، وأثارت فى نفسه الأشواق فسطرها ، وعودته الحنين إليها فنظمه ، وكانت برة به فعاش من أبر أبنائها بها .

عاش ابن حجة فى مصر نحو خمسة عشر عامًا ، مغتربًا عن وطنه الأول « حماة » . ونعم فى اغترابه بطيب عيش وبلهنية بال ووفور مال ، فى ظل الملك المؤيد شيخ . ولكن لم ينس « حماة » قط ، بل ظل يشدو بذكرها ويأسف لفراقها .

---

(١) أخبار هؤلاء الأعلام فى كتب التراجم « كالدرر الكامنة» لابن حجر ، و « الضوء اللامع » للسخاوى ، و « شذرات الذهب » لابن العماد ، وأيضاً فى « تاريخ حماة » للصابونى .



٢ – منشؤه وثقافته

ولد ابن حجة فى « حماة » عام ٧٦٧ هـ – وقيل عام ٧٧٧ هـ – ولم تحدثنا كتب التاريخ بشىء عن أسرته . ولو حدثتنا لاستطعنا أن نبحث عن أثر نشأته بينها ومبلغ تأثره بها .

ويبدو أن ابن حجّة أحد العصاميين الذين اعتمدوا على سواعدهم سعياً وراء الرزق . كما أنه أحد الموهوبين الذين استندوا إلى فطرهم وميولهم لتحصيل العلم والأدب .

وقد اشتغل ابن حجة فى مبكر شبابه بعمل الحرير وعقد الأزرار ، ولذلك يقال له « الأزرارى » . ثم مال إلى طلب العلم ومعاناة الأدب ، وقرض الزجل والمواليا وعالج نظم الشعر . ويبدو لنا أن ميله الفطرى نحو ذلك كان جارفاً . إذ أننا ونحن نتتبع خط سيره فى حياته نشعر به حركة دائبة طوافة . ونشعر به مصدر إنتاج مطّرد ، وأداة تسجيل يقظة مرهفة . لقد جلس إلى الفقهاء ، وتتلمذ للأدباء ، وعكف على الاطلاع ، وثابر على قراءة الكتب ، ورحل من مصر إلى مصر ، ومن محلة إلى سواها ، يطالع وينقب ، ويلتقى ويجرب ، ويحادث وينتفع ، ويتصل ويصادق .

وبلغ ابن حجة من ذلك مبلغاً لا بأس به . إذ كثرت شيوخه وتوافر أصدقاؤه ، واتسعت دائرة معلوماته . فتواترت مؤلفاته وسجل فيها طرائف من التاريخ والأدب والنقد والبلاغة . وأفاد كما استفاد ، وتتلمذ عليه الأكابر ، كما قال عنه السخاوى[1] .

وتشعر وأنت تطالع أسفاره ، وبخاصة « خزانة الأدب » ، أنه رجل موسوعى العقلية طوّاف على آفاق العلم والأدب ، رحّالة فى مختلف أسفارهما قديمها ومحدثها . يجمع منها الشوارد ، ويقيد الأوابد ، ويقرّب بين المتباعد

(١) راجع ترجمة ابن حجة فى « الضوء اللامع » ج ١١ رقم ١٤٤ .

ويسوى بين هذا الشتات فإذا هو خلق جديد ، فيه دماثة وملاحة ، وإسجاح وسماحة .

وابن حجّة محيط بآداب من سبقوه ولا سيما الشعراء والكتّاب والنقّاد والبلغاء . وهو واسع الإحاطة بأدب القاضى الفاضل وصفى الدين الحلّى وابن نباتة وبآداب معاصريه . لقد تأثر أدبه وذوقه بأدب هؤلاء الفحول ، وبدا ذلك واضحـًا فى مناهج أسلوبه فى الشعر والكتابة وفى آرائه الناقدة .

وقد روى ابن حجّة أنه وهو فى مطالع شبابه ، مدح تمر بغا الأفضلى الشهير بمنطاش الأشرفى . وكان تمر بغا حينذاك كافلاً لحماة . وذلك بقصيدة رائية بديعة . وقرأ أبياتـًا منها على شيخه قاضى القضاة علاء الدين على بن القضامى الحنفى ، ومنها هذا البيت :

كأنما الهامُ أَحداقٌ أَضَر بها ... سهْدٌ وأَسيافُه فى الحرب طيبُ كَرَى

فقال له شيخه إن أبا الطيب هو أبو عذرة هذا المعنى حيث قال :

كأَن الهام فى الهيجا عيون ... وقد طبعت سيوفك من رقاد

واستحسن شيخه منه ما فى بيته من زيادات فى المعنى فى قوله : « أضربها سهد » وفى قوله : « طيب كرى » .

فأقسم ابن حجة أنه ما طالع حتى اليوم ديوان المتنبى ، وما كان طالع إلا ديوانى ابن نباتة والحلّى[1] .

وشاهدنا فى عبارته الأخيرة ، وهى تشعر باتجاهه الثقافى المبكر ، وبلون الأدب الأول الذى تأدّب به ، وهو أدب زعماء البديع .

ومن شيوخ ابن حجة تقى الدين بن الحيثمى الحنفى فقيه حماة وقاضيها . والعلامة شمس الدين الهيتى النحوى . وقد تتلمذ عليه فى الأدب . وكذلك تتلمذ على الشاعر عز الدين الموصلى ، وقاضى القضاة علاء الدين على بن القضامى الحنفى .

---

(١) راجع باب المواردة فى خزانة الأدب .

ومن تلاميذ ابن حجة ، الأديب الشاعر محمد بن حسن النواجى صاحب كتاب « حلبة الكميت » . وقد نسخ النواجى عن شيخه ابن حجة كتابه « قهوة الإنشاء » . وفيه يثنى على شيخه ثناءً مستطاباً ويدعو له بطول العمر ، ويدلّنا هذا على مدى ما كان بين الشيخ وتلميذه من محبة . وعلى ما كان لابن حجة من شأن كبير بين الأدباء . ولكن النواجى انحرف عن شيخه بعد زمن . قال السخاوى : « وقد انحرف عنه النواجى بعد مزيد اختصاصهما ، وصنف « المحجة فى سرقات ابن حجة . وزاد فى التحامل عليه » . ولم يفصح السخاوى عن سبب انحرافه . ويبدو أنه زهو ابن حجة بنفسه واستصغاره لشأن بعض الأدباء غيره .

وقد صرح النواجى فى خطبة كتابه « المحجة » بأن ابن حجة كان مزهوًّا بنتاج قلمه حاطًّا على غيره من الأدباء ومنهم معاصروه . فدفعه هذا إلى نقده فى كتابه «المحجة » . ونحن نعتقد أن سبب ذلك صراحته فى نقد معاصريه . ولم يخل ناقد من أعداء .

ومن تلاميذه أيضًا أبو بكر بن إبراهيم بن على ، وهو الأديب الشاعر تقى الدين الحموى المعروف بابن الصواف [1] .

٣ ــ رحلاته ووظائفه

كان عصر ابن حجّة عصر طواف ورحيل ، وتنقل من ثغر إلى ثغر . ونلدر أن قرأنا تاريخ أحد الأعلام فيه ولم نجد له صفحة طليّة تؤرخ رحلاته .

واعتاد بعض الأمراء وهم فى نياباتهم أن يتخذوا لأنفسهم بطانة من أعلام الرجال يعينونهم على شئون الحكم . فإذا انتقل أمير منهم من نيابة إلى أخرى فقد ينقل معه رجالاً من بطانته إلى نيابته الجديدة . فكان هذا عاملاً آخر من عوامل الطواف والرحيل .

---

(١) راجع ترجمة ابن الصواف فى « الضوء اللامع » ج ١١ رقم ٢٨ .

وقد كان ابن حجة أحد موظفى الدواوين فى زمانه ، وممن حظى عند بعض الأمراء والرؤساء، فعاونه هذا على ترحله . كما أنه كان أحد المشغوفين بالعلم والأدب والطواف على أهلهما ، ولا بد أن ذلك كان أحد حوافزه إلى الترحل .

وقد زايل ابن حجة وطنه ومسقط رأسه « حماة » إلى غيرها . ولكنه لم ينسها وظل يذكرها طيلة اغترابه عنها . ولم يكن عجلاً فى مفارقتها . وكان قد اقتُرِح عليه فى مبكر أيامه أن ينتقل من حماة إلى دمشق فأبى . وفى ذلك يقول :

« إن المقر المخدومى الأمينى الحمصى لما انتقل من توقيع حمص المحروسة إلى صحابة ديوان الإنشاء بدمشق ، قصد نقلى من حماة المحروسة إلى أبوابه العالية . وحب حماة يفترُّ العزم عن ذلك . وهذا يفهم من قولى فى بعض قصائدى فيها :

يَلَذُّ عِناقُ الفقرِ لى بفِنَائِها ... وفى غيرِها لم أَرضَ بالملكِ والرهطِ » [(١)]

ولا ندرى متى كان هذا . ويبدو أنه كان قبل عام ٧٩٠ هـ .

وكان ابن حجة قد اشتغل فى مبكر أيامه بعمل الحرير وعقد الأزرار — كما أشرنا — ثم اتجه إلى طلب العلم والأدب والكتابة ، وأخذ ينظم الزجل والمواليا ، ثم عالج نظم الشعر حتى استقام له ، فنظم القصائد ومدح الأعيان فى بلده .

ويبدو أنه على أثر ذلك سلك طريقه نحو الخدمة فى الدواوين وعند الأمراء وفى وقت مبكر . ومما يدلّنا على ذلك أن له رسائل ديوانية كتبها على لسان كافل حماة[(٢)] .

ويقول السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » « إن ابن حجّة ارتحل عن بلده إلى الشام قبل التسعين — أى قبل عام ٧٩٠ هـ — فمدح قاضيها برهان الدين ابن جماعة بقصيدة كافيّة طنانة بديعة قرضها له عدد من نبهاء عصره ، ودخل القاهرة وهى معه ، فوقف عليها الفخر بن مكانس وابنه المجد ، فقرضاها أيضًا .

---

(١) راجع « خزانة الأدب » باب براعة الاستهلال.

(٢) راجع كتابه « قهوة الإنشاء » ، مخطوط رقم ٤٢٨ بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

ومدح الفخر وطارح ولده . ثم عاد إلى بلاده فأقام بها [١] » .

ويبدو أنه لبث بمصر شهوراً ، وأنه زايلها فى عام ٧٩١ ﻫ . إذ أنه كان بالقاهرة فى شهر رمضان من العام المذكور ، ومدح فخر الدين بن مكانس بقصيدة عذبة مطلعها :

قد مالَ غُصنُ النَّقَا عن صَبِّه هَيَفا ... ياليته بنسيم العَتْبِ لو عطَفَا [٢]

وفارق القاهرة إلى دمشق عام ٧٩١ ﻫ ، وكان الملك الظاهر برقوق يحاصرها واشتعل بها حريق كبير . فكتب منها رسالة نثرية إلى صديقه فخر الدين بن مكانس بالقاهرة يصف له رحيله وما عاناه فيه من أهوال ، وما شاهده من حريق وما صادفه من مناظر وآثار . وتسمى هذه الرسالة « ياقوت الكلام فى أيام الشام » . وهى من أطول رسائله ، وتبلغ نحو مائتى سطر [٣] .

وفى عام ٧٩٩ ﻫ كان ابن حجة بدمشق . وبها مدح القاضى علاء الدين ابن أبى البقاء بقصيدة رائية يقول فى مطلعها متغزلاً :

إغراءُ لحظِكِ مَالِى مِنْهُ تحذيرُ ... ولا لِتعريفِ وجدِى فيكِ تنكيرُ

وكان ذلك فى رمضان من العام المذكور ، وكان قد رُسم له بنظم هذه القصيدة معارضة لرائية جمال الدين بن نباتة التى مطلعها :

يا شاهرَ اللحظِ حالى فيك مشهورُ ... وكاسرَ الجفنِ قلبى منكَ مكسورَ [٤]

وكان ابن حجَّة فى حماة قبل عام ٨٠٢ ﻫ وزايلها إلى بلاد الشام . وهناك شهد الفتنة القائمة بل الثورة العارمة ، والحرب بين الملك الناصر فرج بن برقوق ، وبين أتابكيه « إيتمش البجاشى [٥] » . ففر ابن حجَّة من وجه الحرب

---

(١) « الضوء اللامع » ج ١١ رقم ١٤٤ .

(٢) راجع المصدر السابق ، وأيضاً ديوانه « جنى الجنتين » . — و « النقا » .

(٣) الرسالة فى كتابه « قهوة الإنشاء » .

(٤) القصيدة بتمامها فى ديوانه « جنى الجنتين » .

(٥) راجع ترجمة الناصر فرج فى « بدائع الزهور » لابن إياس . وفى « الضوء اللامع » للسخاوى . وفيها أخبار هذه الفتنة . والأتابكى قائد الجند الأعلى ، ورتبته تلى رتبة السلطنة غالباً .

وأهوالها ، وكان بطرابلس الشام فسار بطريق البحر إلى مصر وبلغ القاهرة، وذلك عام ٨٠٢ هـ . فكتب إلى صديقه بدر الدين بن الدماميني رسالة نثرية اسمها « الرسالة البحرية » يصف له فيها رحلته هذه وهروبه من وجه الحرب وما لاقاه من المشقات ، وضمنها أشواقه إليه . وكان الدماميني مقيمًا بثغر الإسكندرية .

ولبث ابن حجة بمصر مدة بين عامى ٨٠٢ هـ ، ٨٠٣ هـ . فقد نظم فى عام ٨٠٢ هـ قصيدة فى التشوق إلى حماة ، أرسلها إلى صديقه ناصر الدين بن البارزى فى حماة — ولعله كان رئيسًا للإنشاء بها حينذاك — ويمدحه فيها ، وهى التى مطلعها :

يا طيِّبَ الأَخبارِ يا ريحَ الصَّبَا   يا من إليه كلُّ قلبٍ قد صَبَا[1]

وكان ابن حجَّة فى حلب عام ٨٠٧ هـ إمامًا لكافلها الأمير « علان » . وكان الأمير « شيخ » — الذى صار فيما بعد سلطانًا على مصر — كافلاً لدمشق حينذاك . وكان قد أخذ فى السفر إلى حلب ومعه الأمير جكم مصاحبًا له، إلى مقر كفالته . وفى ركابهما القاضى الأديب صدر الدين بن الآدمى صديق ابن حجة . فمرّوا جميعًا بحماة فلم يجدوا بها ابن حجة . فلما بلغوا حلب ، اختفى من وجههم الأمير علان كافلها — واختفى باختفائه ابن حجَّة ، وفى ذلك يقول :

« ومرَّ سيدنا ومولانا قاضى القضاة صدر الدين بن الآدمى الحنفى — نور الله ضريحه وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه — على حماة المحروسة سنة ٨٠٧ هـ ، وهو إذ ذاك صاحب ديوان الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة . ومولانا السلطان الملك المؤيد — خلد الله ملكه — كافلها فى تلك الأيام ، وركابه الشريف متوجه إلى حلب المحروسة ، والأمير « جكم » فى خدمته بحيث يوصله إلى محل كفالته بها .

---

(١) القصيدة بتمامها فى جنى الجنتين . وأيضاً فى « خزائن الأدب » باب الجناس . وفى الخزانة يقول إنه أرسلها إلى تاج الدين البارزى لا ناصر الدين .

وكنت فى تلك الأيام بحلب المحروسة إمامَ كافلها « علان » — تغمده الله برحمته ورضوانه — فهرب علان ، واختفيت بعده.

فلما حل ركاب قاضى القضاة صدر الدين المشار إليه بحلب المحروسة توصل بحنوه وصدق محبته وخُبره إلى أن عرف أين كنت مختفيًا . فكتب إلىّ :

قَصَدْنَا حماةَ فلمْ نلفَ مَنْ أَردْنَا فلمْ نَرَ عهدًا وَإلا
وجئْنَا إلى حلبٍ خلْفَـهُ فإن كان فيها اجتمعنا وإلاَّ

فكتبت إليه الجوابَ :

أَمَوْلاَى والله حالَ الجَرِيـ ـضُ دونَ القريض الذى قد تَوَلَّى
وأَرجو وقد عِفْتُ هذى البلادَ خـلاصِىَ بالصدر منهـا وإلاَّ

فقدر الله بالسلامة ، وتوجهت فى خدمته متنكرًا إلى دمشق المحروسة » .

ويتضح من بيتى ابن حجة أنه كان قد عاف الإقامة فى حلب ، وأنه كان يتطلع إلى الانتقال منها إلى دمشق، وأنه قد بلغ أمله ونقل إليها . ويبدو أنه وُظّف هناك منشئًا بالديوان .

وفى دمشق طلب إليه صدر الدين بن الآدمى أن يتناول ديوان «برهان الدين القيراطى» ويطرح منه مالا يناسب . فلخص ابن حجة منه نبذة سماها «تحرير القيراطى » وكتب له خطبة طريفة ، وذلك فى ذى القعدة عام ٨١١ هـ .

وعاش ابن حجة فى دمشق زمنًا ، وكان الأمير « شيخ » كافلاً بها ، وكان قد عيَّن ناصر (٢) الدين بن البارزى خطيباً لدمشق وكاتبًا لتوقيعه . وبدهى أن الفرصة واتت ابن حجة فبدأت صلاته بالأمير شيخ ، كما قويت هذه الصلات بينه و بين ابن البارزى. وصار ابن البارزى رئيسًا لديوان الإنشاء، فدفعه إلى أن يختار من أرجوزة « الصادح والباغم » أرجوزة محبوكة موصولة الأبيات . فاختارها وسماها « تغريريد الصادح » . وكانت هذه رغبة ابن الآدمى من قبل.

---

(١) عن « خزانة الأدب » ، باب الاكتفاء — والإل : العهد والحلف . حال الجريض دون القريض : يضرب لأمر يعوق دونه عائق . وفى الشطر الرابع اكتفاء وذلك بحذف الشرط والجواب .

(٢) راجع ترجمة محمد البارزى فى « الضوء اللامع » .

وزار الخليفة المستعين بالله العباسى دمشق عام ٨١٣ هـ ، قبل سلطنته ، فأنشأ عنه ابن حجة رسالة[١] طويلة مسهبة ، بمناسبة حلول ركبه بها .

وفى العام المذكور قُدّر أيضًا على ابن حجّة أن يختفى وهو بدمشق ، فقد حلّ بها سلطان مصر حينذاك ، الناصر فرج بن برقوق ، وكان بينه وبين أمرائها عداوات وشحناء[٢] . فاختار ابن حجة الاختفاء ريثما تنجلى الأحوال .

ويبدو أنه زار فى العام التالى وهو عام ٨١٤ هـ مدينة حلب ، فقد كتب هناك رسالته المهملة ـ غير المنقوطة ـ يعارض بها رسالة وعظية مهملة[٣] ، وكان ذلك استجابة منه لطلب صديقه الأديب أبى عبد الله محمد الشافعى .

ولما آلت السلطنة المصرية إلى المؤيد شيخ عام ٨١٥ هـ . نقل إلى القاهرة بعض رجال حاشيته بدمشق ، ومنهم ناصر الدين بن البارزى فجعله كاتب سره ورئيسًا لديوان إنشائه . ونوه ابن البارزى لدى المؤيد بصديقه وبلديه ـ كما يقول السخاوى ـ تقى الدين بن حجة . فاستُقدم إلى القاهرة فى ذلك العام ، وعين منشئًا للديوان تحت رياسة ابن البارزى . فاشتهر وبعد صيته وصار أحد الأعيان وباشر عدة أنظار[٤] . وظل من ذلك الحين يدبج رسائل الديوان عن الملك المؤيد شيخ ، ويرفع إليه قصائد المديح فى المناسبات . وأول هذه المناسبات قدومه من دمشق ، فطُلب إليه نظم قصيدة مدح للمؤيد تتضمن أهم الأحداث فى حياته ، فنظم قصيدة طلية فى نحو ٨٦ بيتًا أنشدها بين يدى المؤيد فى يوم مشهود فحازت القبول من لدنه وخلع عليه تشريفًا وعاد وهو منشىء الديوان . وهذه القصيدة مطلعها :

كأْسُ المَسَرَّةِ فى البريَّةِ دَائِرُ ... والمُلْكُ بالمَلِكِ المُؤَيَّدِ زاهرُ[٥]

ولبث ناعم البال رخىّ العيش فى كنف المؤيد وابن البارزى حتى مات ابن

---

(١) الرسالة فى « قهوة الإنشاء » ، مخطوطة رقم ٤٣٨ أدب عربى ، بدار الكتب المصرية .

(٢) الشحناء : البغضاء .

(٣) راجع « قهوة الإنشاء » مخطوط رقم ٤٣٨ وبها الرسالة كاملة .

(٤) « خزانة الأدب » باب المناسبة . وراجع أيضاً ترجمة ابن حجة فى « الضوء » .

(٥) راجع « جنى الجنتين » لابن حجة .



البارزى عام ٨٢٣هـ . وتبعه المؤيد عام ٨٢٤ هـ . فقال ابن حجة يرثى ابن البارزى :

لفقدك يا ابن البارزىّ تهدمتْ بيوت المعالى مالها من مشيّدِ
وما خلب الأكبادَ حزن مبرّح كحزن أبى بكر لفقد محمدِ(١)

ومما يذكر أن المؤيد رحل غير مرة إلى البلاد الشامية والحلبية ، وغزا بلاد الروم وفتح بعض مدنها وعاد منها مظفرًا إلى البلاد المصرية . ومنها رحلته عام ٨٢٠هـ . وكان ابن حجة فى ركابه . وقد سجل ابن حجةَّ فى رسالة نثرية طويلة أنباء هذه الرحلة وما تم فيها من النصر المبين . وله غيرها فى رحلات المؤيد(٢) .

وعاش ابن حجة بمصر بعد المؤيد وابن البارزى ، وكتب لسلاطينها المظفر بن المؤيد ، والظاهر ططر وابنه الصالح محمد، ثم الأشرف برسباى الذى ولى السلطنة عام ٨٢٥ هـ :

وكان كمال الدين بن الناصرى بن البارزى قد عُيِّن فى رياسة الإنشاء عوضًا عن أبيه، غير أنه عزل بعد قليل ، وعُين مكانه علم الدين داود بن الكويز صهر الناصرى بن البارزى، فلم يجد ابن حجة لدنه من حسن المعاملة وطيب الصحبة وصدق التقدير ما كان يجده من قبل ، وما هو أهل له . فقلقت نفسه وتبلبل خاطره، وهجر العمل فى الديوان .

ومن الطريف أن ابن حجة هجا ابن الكويز المذكور ببيتين هما كل أبياته فى الهجاء، على ما نعلم . وفيهما يقول :

العَلَمُ بنُ الكُويْز قالَ : مَعِى لُطفٌ وظَرفٌ حواهُمَا الكَرَمُ
وقامتِى بانةٌ مهفهفـــــــةٌ فقلتُ لا بانةٌ ولا عَلَمُ(٣)

---

(١) البيتان فى « تأهيل الغريب » لابن حجة ، باب المراثى .

(٢) الرسالة بتمامها فى « قهوة الإنشاء » .

(٣) البيتان فى « كشف اللثام » لابن حجة ص ١٤٥ .

مع العلم بأن ابن الكويز المذكور لما أصهر إلى ابنة البارزى ، كتب ابن حجّة صداقه ، وأغدق عليه فيه آيات الثناء .

هذا ولا ندرى بالضبط متى هجر ابن حجّة العمل فى ديوان الإنشاء . وقد مات ابن الكويز — الذى كان سبباً فى قلقه — عام ٨٢٦ ه[١].

وكان ابن حجّة مزهوًّا بنفسه مدلا بأدبه، فخلق له هذا الزهو والإدلال خصومًا وأعداء ظلوا يكيدون له ويهجونه حتى ملّ المقام بمصر جملة ، فهجرها إلى مسقط رأسه حماة عام ٨٣٠ ه .

وعاد كمال الدين بن البارزى إلى رياسة الديوان فى نحو عام ٨٣٥ ه ولبث إلى رجب عام ٨٣٩ ه[٢]. فلما علم ابن حجّة ، حاول أن يعود إلى مصر فى زمان رياسته فلم يوفق . ولبث فى حماة مشتغلاً بالعلم والأدب حتى مات عام ٨٣٧ ه .

ويقول عنه السخاوى : «كان إمامًا عارفًا بفنون الأدب متقدمًا فيها طويل النفس فى النظم والنثر ، حسن الأخلاق والمروءة ، مع بعض زهو وإعجاب ومداومة على خضب لحيته بالحمرة إلى أن أسن حتى هجاه بذلك البدر البشتكى بقوله :

صِبِيغٌ دعاوِيه لا تنتهى يُخَطِّى الصَّوابَ ولا يَشْعُرُ
تفكَّرْتُ فيه وفى ذقنه فلم أَدرِ أَيُّهما أَحمرُ

وقال السخاوى أيضًا : «وهجاه كثيرون من شعراء وقته بمقاطيع مقذعة . وكأنه — والله أعلم — لأنه كان ضنينًا بنفسه وبشعره ، يرى غالبهم كآحاد تلاميذه[٣]» .

وعلى نحو من هذا تحدث ابن العماد فى كتابه «شذرات الذهب» ، فقال : «إن ابن حجة الحموى كان مدلاً بنفسه مزريًا بغيره من شعراء مصر

(١ ، ٢) راجع «حسن المحاضرة» للسيوطى ج ٢ تحت عنوان «كتاب السر» .
(٣) راجع ترجمة ابن حجة فى «الضوء اللامع» للسخاوى ج ١١ رقم ١٤٤

أيام إقامته بها فى زمن المؤيد شيخ . وأن المؤيد كان قد قدمه وقربه ، فازداد جاهًا ومنزلة . ولمـًّا مات المؤيد تسلط عليه جماعة من شعراء عصره وهجوه . وقال فيه بعضهم :

زادَ ابنُ حجةَ بالإسهالِ مِنْ فَمِهِ ... وصار يسلحُ منثورًا ومنظومـا
وظن أَنْ قد تنبا فى ترسُّلِهِ ... لو صَحَّ ذلك فِعلاً كان معصُومَا[١]

مات ابن حجة فى بلده الأثير ، ودفن به . قال صاحب كتاب « تاريخ حماة » : « إن ابن حجة دفن فى تربة الجسر وبُنى على قبره قبة بقيت جدرانها إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى ، فأقام بعض الناس حجارة على لحده وحفر عليها أنَّ هذا قبر الغزالى . — أى صاحب كتاب الإحياء — والعامة يزورونه باسم الغزالى ، ويجهلون أنه ابن حجة . وأما الغزالى فقد دفن فى مدينة طوس ، ولا يعرف حماة[٢] » .

هذا . وقد ذكر ابن حجَّة فى كتابه « تأهيل الغريب » أنه أوصى أن يكتب على قبره هذا البيتان :

يا غافِرَ الزلَّاتِ يا منْ عَفْـوُهُ ... يَنْهَل بالرحمةِ مِنْ فوقِ السحبْ
بيتك قد جاورتُهُ بحفْرَتِى ... وأَنتَ قدْأَوْصَيْتَ بالجارِ الجُنُب[٣]

٤ — صداقاته

كانت ترحلات ابن حجة سببـًا بارزًا فى إثراء أدبه . وهناك سبب آخر ، وهو صداقاته . وقد ألمعنا إلى شىء من أنبائها . ولا ريب أن أدب المرء يفتح له باب الصداقات ، وإن فتح عليه أحيانـًا باب العداوات .

ومما هيأ لابن حجة سبيل صداقاته ، أنه كان منشئـًا فى ديوان الإنشاء ، وبحكم وظيفته أصبح وثيق الصلة بكثير من رجالات الدولة . وكثيرًا ما كتب

(١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ، وفيات عام ٨٣٧ هـ .
(٢) راجع كتاب « تاريخ حماة » للصابونى .
(٣) الجار الجنب : جارك من غير قومك .

لهم تقاليدهم — أوامر تعيينهم — بقلمه . فأسبغ عليهم فيها آيات الحمد والثناء ، وأفصح عن محاسنهم وصفاتهم الفاضلة .

واستغلت النزعة الأدبية فيه — باعتبارها كائنًا حيًّا يريد أن يعيش — فرصة هذه الصداقات ، واتخذتها إحدى وسائلها إلى الحياة والينع . فأنتجت خير نتاج وأطيبه ، من رسائل ديوانية ، وإخوانية فى عتاب أو تشوق أو وصف أو غير ذلك، ومن قصائد فى المديح أو الحنين أو نحوهما ، ومن مؤلفات ألفها تلبية لإشارة صديق ، أو استجابة لرغبة رفيق .

ومن أصدقائه على سبيل المثال :

صدر الدين بن الآدمى ، القاضى الأديب الذى ولى رياسة ديوان الإنشاء مدة بدمشق . ومما نظمه ابن حجة إليه قصيدة بارعة الاستهلال قال فى مطلعها ناسبًا :

وَصَلتْ ولكنْ بعدَ طوُلِ تشوُّقِى ... ودَنَتْ وقد رقَّتْ لقَلبى الشَّيِّقِ

وابن الآدمى هو الذى حفز ابن حجة إلى جمع مختارات من شعر القيراطى شاعر مصر فى زمانه، سماها « تحرير القيراطى » . وهو أيضًا صاحب فكرة أرجوزة « تغريد الصادح » .

ومنهم ناصر الدين محمد بن البارزى ، أحد أفراد أسرة البارزى الحموية ذات التاريخ الحافل بالعلم والأدب والرياسة والسياسة . وبلغ ابن البارزى هذا رياسة ديوان الإنشاء بمصر فى سلطنة المؤيد شيخ ، وكاد يكون المتصرف فى شئون دولته . وهو الذى عمل على نقل ابن حجة إلى الديوان بمصر منشئًا .

وابن البارزى هو الذى أوحى إلى ابن حجة بنظم قصيدته « البديعية » التى عارض بها بديعيتى الموصلى والحلى ، وراقبه وهو ينظمها بيتًا بيتًا .

ومنهم بدر الدين محمد بن أبى بكر الدمامينى . أحد أدباء عصره ، وأحد أعلامه فى النحو . كان من خلصان ابن حجة . وكانت بينهما مراسلات طلية ومنها « الرسالة البحرية » لابن حجة .



ومنهم شهاب الدين بن حجر العسقلانى قاضى قضاة زمانه ، وهو الحافظ الراوية والأديب الشاعر . وقد حكمه ابن حجة مرة فى تائيات ثلاث . الأولى لابن نباتة ومطلعها :

قَضَى وما قُضِيتْ منكمْ لُبَانَات   مُتَيمٌ عَبِثَت فيه الصبابات

والثانية لبرهان الدين القيراطى يعارض ابن نباتة ومطلعها :

ما لابتداءِ صبـــاباتِى نهاياتُ   يا غايةً ما لِعشْقى فيه غاياتُ

والثالثة لابن حجة يعارضهما ومطلعها :

لعُجْبه ولذَيْل الهجر شمراتُ   وللقُلُوبِ من الأَجفانِ كسْراتُ

وكل من الأدباء الثلاثة رأس جيله فى الأدب والشعر . وقد حكم ابن حجر لصديقه ابن حجة بالتفوق عليهما فى قصيدته .

الفصل الثالث

جوانب تقيّ الدّين بن حجّة الحمويّ

١ ــ ابن حجة المؤلف

وقد تعددت جوانب ابن حجة . فهو مؤلف وناقد وكاتب وشاعر . وهذه الأربع جماع مميزاته .

وهو مؤلف بارع ، أديب غلبت عليه النزعة الأدبية أكثر من العلمية . ويشعر المرء حين يطالعه أنه قد اكتملت له خصائص المؤلف ، من حنكة وخبرة وسعة إحاطة وطول صبر وحب للعمل ولباقة فى تسويته حتى يصير خلقـًا نابضًا .

وقد يضير ابن حجَّة ، عند البعض ، أنه لا يبتكر موضوعاته وأفكاره ابتكارًا يضعه فى الصفوف الأولى بين المؤلفين ذوى الآراء الجديدة الذين يتعمقونها ويفصلون القول فى نواحيها ويربطون بين أجزائها حتى تكتمل . بل يكتفى ببعث القديم أو عرض المعاصر ، وإن كان يحسن البعث ويجيد العرض .

وقد لا يحظى بالتقدير ، الذى يستأهله ، عند بعض نقاد الأدب والتأليف . لأنه غلب عليه حب الجمع بين الشتات المتفرق ، ونظم المنثور المتباعد .

ولكننا إذا نظرنا إلى مجموعاته وشهدنا غربة شتاتها وغرابة صلاتها ، ثم معالجته لها حتى صارت كُلا متماسكـًا مزوّدًا بما يحبكه به من دقة الربط ، وما يخلقه بينه من حسن المناسبة ، وما يسبغه عليه من لطيف الصلة ، وما يسبكه فيه من قوالب الذوق ، شهدنا أن هذا عمل تأليفى بارع قد يشقى به المؤلف أكثر مما يشقى بإخراج فكرة جديدة أو إبراز رأى مبتكر .

وابن حجَّة فى ذلك النهج من التأليف ، ينزع منزع أهل عصره أو أكثرهم

ممن يتصدون للتأليف. وهذا اتجاه تأليفى طبعى بالنسبة لعصر المماليك ، وطور ضرورى دفعت إليه ظروف التاريخ فى الأمة الإسلامية والعربية وتحولات سياستها واجتماعها . فقد عاشت زمنًا طويلا من قبل، وانبثقت بينها حضارات ومدنيات متنوعة ، فاندفعت إلى الاشتغال بالعلوم والآداب والفنون والصناعات . وبلغت فى ذلك شأوًا بعيدًا ، وخلف رجالها فى كل هذه الميادين ما لا ينفد من مبتكرات الأذهان ومبتدعات العقول ، وذخرت بذلك كتبهم وأسفارهم .

ثم تهاوى عليهم الأعداء من كل جانب ، وتداءبت عليهم الأيام من كل صوب ، فلحق التلف بكثير من هذه الكتب والأسفار .

وما إن استقر بها عصر المماليك ، وذاقت فيه طعم الأمن والرخاء نسبيًا ، حتى اندفع علماؤها وأدباؤها يستعيدون لها مجدها القديم ، ويجددون شباب علمها الدارس ، ويبعثون آدابها المتوارية . فكان لا بد لهم من البحث عن القديم المتناثر ، وجمع شتاته ولم شعثه حتى يسجلوا شيئًا مما عبث الزمان به من نتاج أسلافهم . فكان هذا الدور من أدوار التأليف . وكان ضرورة قضى بها سياق التاريخ .

وهذه ظاهرة عامة فى جميع كتب العلوم والآداب لهذا العهد . تراها ماثلة فى كتب التاريخ والفقه والحديث والتفسير وغيره . فليست مقصورة على الكتب الأدبية . فابن حجة إذن ليس غريبًا فيما صنع بالنسبة إلى منطق عصره .

وما كان أحوج الأدب وتاريخه إلى مثل مؤلفاته . ذلك لأن العلوم الأخرى وبخاصة علوم الدين ، حظيت فى هذا العصر بعناية عظيمة أكثر مما حظيت الآداب . فإذا نظرنا إلى ابن حجة من هذه الزاوية أكبرنا صنيعه ، وهو فى الحق يعد فى طليعة المؤلفين فى الأدب وتاريخه ونقده . وإنه قد جمع ولاءم ، ونظم وربط ، وصاغ كثيرًا من كتبه بقلمه ، ووثق بين أطرافها برأيه وذوقه ، وأضاف إليها تسجيلات عن عصره قد لا نظفر بها فى مظان أخرى .

وحسبه كتابه « خزانة الأدب » الذى شرح فيه بديعيته ، ولاءم بين النقدين :

الأدبى والبيانى ، وساق كثيراً من الشواهد القديمة والحديثة لعهده . وتذوق ونقد، واستجاد واستقبح ، ووازن ورجح ، ودلل وعلل .

ومؤلفاته كثيرة منها المطبوع والمخطوط حتى اليوم ، ومنها الضائع والمفقود . وإليك على سبيل المثال[١] :

١ ــ قصائده ودواوين شعره. وهى التى جمع فيها ما نظمه فى مناسبات حياته . ومنها : ديوانه ، وقصيدته البديعية ، وبيوت العشرة ، وقبول البينات ، والثمرات الشهية من الفواكه الحموية أو جنى الجنتين ، والزوائد المصرية ، وتفصيل البردة .

٢ ــ مختاراته الشعرية، وهى التى جمع فيها ما اختاره من شعر المتقدمين أو المعاصرين ، ولا يخلو بعضها من شعره . ومنها : تأهيل الغريب ، وقطر النباتين، ورشف المنهلين ، وبلوغ المراد ، وازدهار الأنوار ، وتحرير القيراطى وتغريد الصادح ، وحديقة زهير ، وناصح قلاقس ، وزاوية شيخ الشيوخ .

٣ ــ رسائله ودواوينها ، وهى ما كتبه نثراً من الرسائل الرسمية فى ديوان الإنشاء ، أو الإخوانية خارج الديوان ، أو نحو ذلك من الرسائل الأخرى . ومنها : قهوة الإنشاء ، ومجرى السوابق ، ورسالة السكين ، وتعليق التمائم فى وصف الحمائم .

٤ ــ كتب المحاضرات ، وهى التى جمع فيها ما اختاره من محاضرات الأدباء ورسائلهم ونوادرهم، ومنها: ثمرات الأوراق، وقد ضمنه بعض أخباره هو ورسائله . وبروق الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم ، ويبدو أنه منتخبات من شرح الصفدى على لامية الطغرائى . وتأهيل الغريب ، وهو غير تأهيل الغريب الشعرى .

٥ ــ كتبه فى النقد والبلاغة وغيرهما ومنها : خزانة الأدب . وكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ، وبلوغ المرام وهو فى السيرة النبوية . والسيرة

---

(١) راجع ما ورد فى ترجمته فى « الضوء اللامع » للسخاوى ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان ، و « معجم بروكلمان » وخاتمة كتاب « قهوة الإنشاء » لابن حجة ، وفهرس دار الكتب المصرية .



الشيخية ، وهو فى تاريخ المؤيد شيخ . وبلوغ الأمل فى فن الزجل . ولزقة العطار ولطائف التلطيف .

التعريف ببعض كتبه :

وإليك وجازات فى التعريف ببعض هذه الأسفار ، فمنها :

١ ــ خزانة الأدب[١] :

نظم ابن حجة قصيدة بديعية فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام سماها «تقديم أبى بكر» معارضًا بها بديعيتى الصفى الحلى والعز الموصلى . وضمن كل بيت فيها نوعًا بديعيًا ، مع الإشارة إلى اسم هذا النوع فى البيت نفسه .

ثم شرح بديعيته ، ووازن بينها وبين بديعيتى الموصلى والحلى بيتًا بيتًا ، مبينًا مزايا أبياته وأرجحيتها فى أداء المعانى وتوفية الألوان البديعية ، وما ينتاب بعض أبياتهما من نقص أو ضعف أو نحوهما . ويدفعه الاستطراد إلى الموازنة بين أبياته وأبيات بديعية ابن جابر الأندلسى المعروفة ببديعية العميان . هذا الشرح هو « خزانة الأدب » .

ولم يتناول فيه سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكنه عنى بشرح الألوان البديعية التى ضمنها أبياته ، وهى جماع ألوان البديع لعهده ، وتبلغ نحو ١٤٢ نوعًا .

ومنهجه أن يعرض للنوع البديعى الذى ضمنه بيتًا من البديعية وأشار إلى اسمه فيه ، فيعرّفه تعريفًا بلاغيًا معتمدًا فى ذلك على أمهات كتب البلاغيين . ولا يقتصر فى أحيان كثيرة على تعريف واحد بل يورد أكثر من تعريف توضيحًا للنوع ، ويوازن أحيانًا بين التعاريف ويرجح ويعلل . كل هذا فى أسلوب الأديب السمح الذى نحى عنه خشونة العلم وصلابة التعاريف . مع تزويده بلطائف الذوق الناقد .

---

(١) « خزانة الأدب » طبعت غير مرة . ومنها طبعة بولاق عام ١٢٩١ هـ وهى التى اعتمدنا عليها هنا . ــ وللخزانة مختصر يسمى « شرح أبى الفلاح » لعبد الحى بن أحمد بن العماد الحنبلى المتوفى عام ١٠٨٩ هـ

ثم يسوق أمثلة على النوع تطبيقية . ويسجل بيت بديعيته وما يقابله من غيرها. وقد استكثر من الأمثلة الشعرية فى بعض الأبواب حتى تحولت إلى دواوين فى بابها ، وترى ذلك فى باب براعة الاستهلال وباب الجناس وباب السجع والتورية والإيداع .

ويعلن عند إيراد المثال برأيه فيه مستجيداً أو مستقبحاً ، وكثيراً ما يعلل تذوقه هذا. غير أنه يشوبه أحياناً المبالغة فى المدح عند الاستجادة ، والمبالغة فى القدح عند الاستقباح.

وكثرة الأمثلة فى خزانة الأدب من أهم مميزاتها التى تسمو بها على كثير من كتب النقد والبلاغة التى وقفت عند أمثلة بعينها .

وبهذه الكثرة من الشواهد، وبهذه النزعة من النقد، وبهذا الحسن فى العرض، تحكم معى أن خزانة الأدب مرحلة هامة من مراحل النقد الأدبى وعلم البلاغة : ولكن أغفلها كثير من المحدثين .

وفى الكتاب خصوصية ليست فى سواه ، وهى عناية المؤلف بالإكثار من الأمثلة والشواهد من شعر شعراء مصر والشام ، وبخاصة شعراء العصر المملوكى ، والشعراء المعاصرين للمؤلف ، ومن شعره . فأصبح كتابه سجلا حافلا بنصوص أدبية قد لا نظفر بها فى سواه ، وهو بذلك يعين على تصور الحياة الأدبية فى عصر المؤلف .

وللمؤلف « لازمة » يندر أن تفارقه ، وهى التقديم أو الاستطراد عند تسجيل الشواهد، فيمهد لها أو يعقب عليها بأخبار تاريخية ونوادر أدبية تتصل بها عظيمة القيمة فى تاريخ الأدب ، وبخاصة تاريخه المعاصر للمؤلف، مما يعتبر جديداً فى بابه .

هذا وقد استرسل المؤلف فى أسلوبه هنا ، ولم يتبع قواعد النثر الفنية المرعية فى زمانه ، وهى القواعد التى اصطنعها فى رسائله الديوانية والإخوانية ، والتى كان هو أحد المتعصبين لها المغالين فى اصطناعها.

غير أنه لم يتركها جملة، بل كان يعود إليها الفينة بعد الفينة . ومع استرساله فى أسلوبه غلبت عليه العبارات الأدبية إلى حد كبير .

ويعتبر هذا السفر الضخم أهم كتاب ألفه ابن حجة ، وخاتمة كتب البلاغة والنقد التى أعادت إليهما بشاشة الأدب ، حتى نهض النقد فى العصر الحديث.

وقد فرغ المؤلف منه فى ذى الحجة عام ٨٢٦ هـ ، ويبدو أنه سلخ فى تأليفه نحو أربع سنين ، بدأه قبل وفاة صديقه البارزى فقد ذكره فى أول الكتاب ودعا له ، وذكره فى أواخره وترحم عليه[١] .

٢ ــ ثمرات الأوراق :

اسم هذا الكتاب « ثمرات الأوراق، فيما طاب من نوادر الأدب وراق ». فهو ــ كما يبدو من عنوانه ــ مجموع قيّم ومختارات حافلة من لطائف النوادر والحكايات والنكت والروايات والرسائل النثرية مما دار فى مجالس الملوك والعلماء ، ومما وقع للأدباء والفضلاء ، بين جد ومجون ، وأدب ولغة ، وعظات ونقد .

ومجموعاته استطرادية لا تقف كل مجموعة تحت عنوان . ويغلب عليها النثر ، ويتخللها أبيات من الشعر . ويسوقها المؤلف بعباراتها الأصيلة أحيانًا، وأحيانًا بعبارته وبقلمه . وكثيرًا ما يمهد لها أو يعقب عليها أو يستدرك أو يوازن أو ينقد .

وقد استعان فى جمعها بعدة كتب ، نقل عنها ، منها على سبيل المثال : المثال: درة الغواص للحريرى ، والأغانى لأبى الفرج ، والوفيات لابن خلكان ، والأعيان والأمثال للصابى ، وسرح العيون لابن نباتة . والعقد الفريد لابن

---

(١) للأديب السيد أبو بكر بن عبد الرحمن العلوى الحسينى الحضرمى ــ من أدباء العصر الحديث ــ كتاب : « إقامة الحجة على التقى بن حجة » تعقب فيه خزانة الأدب وبين ما فيها من مغالطات وسرقات وغيرها .

عبد ربه . وروضة الجليس لابن زفر الطبيب . وكتاب الأذكياء وكتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزى . وغير ذلك .

وهذه المجموعات تدل على ذوق أدبى أصيل وعلى سعة اطلاع وإحاطة . غير أننا لا ننكر أن ابن حجة — وهو رأس أدباء جيله — كان فى استطاعته أن يتحف قراء الأدب بموسوعة أكبر ، ومصنفة أوسع وأنضر .

غير أنّ فى هذا الكتاب خصوصية طريفة — وهى مشتركة بين بعض كتبه — وأعنى تسجيل بعض نوادره ونوادر فضلاء عصره ، وشىء من نصوصه ونصوصهم . ويا حبذا لو كان ابن حجة التفت إلى هذا اللون من التسجيلات الأدبية وحده ، إذن يظفر الأدب وتاريخه بغنم سمين . أما أكثر ما سجله فى « ثمرات الأوراق » فمما يستطيع القارئ أن يظفر به فى مظانه ، وهى متداوله .

ومن موضوعاته — على سبيل المثال أيضًا : مقالة عن المعتزلة . ونوادر عن الحمقى والأذكياء والمتطفلين والمتلصصين . ونادرة لطيفة عن أبى جعفر المنصور . ومثول بثينة وعزة بين يدى عبد الملك بن مروان . وأبو العلاء المعرى والمنازى الشاعر . وأبيات فى وصف السيف والرمح والقوس . ومختارات من نثر القاضى الفاضل . وهشام بن عبد الملك وحماد الراوية . وحديث عن السجع وأنواعه . وحديث عن البلاغة والفصاحة . وإرشادات للمنشئين . . .

ومن تسجيلاته عن أدب عصره : مختارات من إنشاء محيى الدين بن عبد الظاهر . ورسالة حظيرة الأنس لابن نباتة . والرسالة البحرية لابن حجة . . .

هذا ويبدو أن ابن حجة ألف « ثمرات الأوراق » بعد عام ٨٢٤ هـ . الذى توفى فيه الملك المؤيد شيخ ، لأنه ذكره فى بعض رسائله وترحم عليه .



٣ – كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام [1] :

كان صلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤ هـ من أعلام عصره فى الأدب والتاريخ وله كتابا « فض الختام عن التورية والاستخدام » و « جنان الجناس » . تكلم فى الأول عن التورية والاستخدام . وفى الثانى عن الجناس ، وكان ولوعاً بالجناس ولعاً شديداً . ورأى ابن حجة أنه لم يوف التورية حقها من الحديث ، وأنه جن بالجناس دون مسوغ .

وقد رأى أن يؤلف كتابه « كشف اللثام » ليستدرك فيه على الصفدى ويوفى التورية حقها من الإيضاح والتمثيل .

ومذهب ابن حجة أن الجناس أحط من التورية ، وأنها فى الذروة من البلاغة ، ومن هنا صارت أحق بالعناية وأجدر . وأنحى باللائمة على المتقاعدين عنها ، ووصمهم بالعجز عن بلوغ غاياتها . وأشار إلى أن أفذاذ المتقدمين سلكوا سبيلها ، وقفّى هو على آثارهم .

لذلك ألف كتابه « كشف اللثام » نقداً على كتاب الصفدى ، وبياناً لسوء رأيه فى الجناس ، وضعفه عن السمو إلى سماء التورية .

وساق – على عادته – أمثلة وافية وشواهد كثيرة من نظمه ونظم فرسان التورية منوهاً بمنازلهم وطبقاتهم وموجز من تاريخهم ، مع موازنة يسيرة بين بعضهم وبعض ، ونقد لأقوالهم بين استجادة واستقباح ، وتنبيه على الجديد منها والمسبوق والمسروق ، إلى غير ذلك .

والكتاب بهذا نمط من « خزانة الأدب » . وكرر فى الخزانة كثيراً مما سجله فى كشف اللثام ، وذلك فى باب التورية . والملحوظ أنه لم يعن فيه بالاستخدام عنايته بالتورية . وأحسب أنه أوفى كتاب فى بابه .

---

(١) هذا الكتاب مطبوع ، بالمطبعة الأنسية ببيروت عام ١٣١٢ هـ .

٤ ــ تأهيل الغريب [١] :

هذا الكتاب من أثمن ما خلفه ابن حجة، وهو دليل على حسن ذوقه وعمق فهمه وسعة محفوظه ودقة موازنته. ولا يزال مخطوطًا حتى اليوم. وقد طبع منه جزء قليل مع ثمرات الأوراق باعتباره تذييلا له. ولعل ذلك من عبث الناشر. ونحن نستبعد أن يكون تذييلا للثمرات لاختلاف واديهما، فالثمرات فى النثر، والتأهيل فى الشعر. ولأن التأهيل أكبر منه حجمًا وأوسع أفقًا وأعظم قيمة وأكثر إمتاعًا.

وتأهيل الغريب مجموعة فريدة من الشعر ــ كما أشرنا ــ تحتوى على آلاف الأبيات من قديم الشعر وحديثه إلى زمن ابن حجة. وقد أتم جمعه وتبويبه فى أواخر رمضان عام ٨٣٥ هـ، لذلك نرجح أنه آخر مؤلفاته ومجموعاته.

وقد سجل ابن حجة فى خاتمة كتابه « قهوة الإنشاء » الذى جمعه عام ٨٣٢هـ أسماء مؤلفاته، ومن بينها «تأهيل الغريب» ونعتقد أنه التأهيل النثرى لا الشعرى.

والملحوظ أن دواوين المختارات الشعرية فى أدبنا قليلة العدد، بالنسبة إلى سعة هذا الأدب وطول عصوره. وبخاصة ما كان منها مبوبًا وفق نظام فنى دقيق له هدف أدبي يعين الباحثين.

فإذا علمنا ذلك بدت لنا أهمية« تأهيل الغريب ». وليس أمره مقصورًا على أنه مجموعة من الشعر يستطيع أى أديب أن يجمعها. ولكنه مبنى على أساس، ومبوب بذوق، ومجموع بهدف. ومزود بروابط، وموضح بتعليقات ونقدات. وكل هذا يجعلنا إزاء موسوعة أدبية عظيمة القيمة، فيها الشعر والنقد والتاريخ.

وقد اعتمد جامعه على أمهات كتب الشعر مثل يتيمة الثعالبي وحماسة

---

(١) هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً. وقد طبع نحو سدسه مع ثمرات الأوراق. وقد ألف بعنوانه أكثر من كتاب.



أبى تمام والأغانى ودواوين الشعراء وغير ذلك .

وقد اختار فيه لنجو أربعمائة شاعر ، منهم المتقدمون فى الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بنى أمية . ومنهم شعراء عصر بنى العباس . ومنهم شعراء مصر والشام فى مختلف عصورهما ، إلى زمن ابن حجة .

ومن بينهم المعروف المشهور كامرئ القيس والنابغة وحسان والحطيئة وجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى وأبى العلاء وابن سكرة والبهاء زهير والقاضى الفاضل والشاب الظريف والصفى الحلى والعز الموصلى والجمال بن نباتة .

ومن بينهم المناكير الذين تتأبى عليهم ذاكرة الأديب، إلا من كان طوافاً فى دروب الأدب ومفاوزه . ومنهم أبو إسحق الغزى وابن الشبلى البغدادى وابن عون الكاتب وابن غانم القصرى وأبو محمد السلمى ، وأبو الحسن البديهى ، والأمين الحمصى ، وأمين الدين الحوبانى ، وإيدمر الصوفى ، وعون الدين العجمى ، ووجيه الدين الدروى وغيرهم .

فذكر ابن حجة لهؤلاء الشعراء ، وتسجيله مختارات من أشعارهم ، أضفى على كتابه أهمية عظيمة لما يفيده تاريخ الأدب من وراء ذلك ، ولندرة هذه المختارات وصعوبة الوصول إليها .

هذا بالإضافة إلى ما امتاز به « تأهيل الغريب » من ذكر أدباء مصر والشام ومختارات أشعارهم ، وبخاصة أدباء عصر المماليك ومن بينهم معاصرون لابن حجة . وبالإضافة أيضاً إلى ما سجله فيه من نتاج شعره .

وقد بوب ابن حجة كتابه هذا عدة أبواب ، يختص كل منها بغرض شعرى ، يسوق فيه ما استجاده مما قيل فيه . وتبويبه لا يخلو من طرافة وجدة ، يفارق بهما غيره من دواوين المختارات . وقد قال ابن حجة فى مقدمته مبيناً رأيه فى اختيار الشعر : « ما خفى أن المتخير يحتاج إلى صحة ذوق وضياء حس ودقيق فهم وصحة تمييز . وحسن هذا الذوق إنما هو أمر إلهامى ليس مما يكسب . ولكن يختلج من صدر من أدبه ربه فتأدب . فإذا اختار شيئاً وأورده نزه الناس

فى حدائق وروده . وكان نعم الواسطة فيما أحكمه من نظم عقوده .

فما كلُّ دارٍ أقفرت دارةُ الحِمَى ولا كل بيضاءِ التّرائبِ زيببُ »

وابن حجة — كما ترى — يسمو بملكة الأدب وحسن الذوق إلى مرتبة الإلهام . وهذه مبالغة ، إذ من المستطاع كسبها .

ومهما يكن من شيء ، فإن أبواب الكتاب تبلغ نحو ٤٥ باباً أكثرها فى الوصف . وإليك بعضاً منها على سبيل المثال :

الغزل المحمس . التشبيه. المدح. الحماسة الخالصة . وصف السيف. وصف الرمح. وصف القوس. وصف الخيل. مدح الحمير الأهلية وذمها. المراثى. الفخر . الغزل الخالص . سهام العين . استعارات السنان للحظ وصف الدمع . وصف العذار . وصف الخال . غزل التورية . الأحاجى . الألغاز . الأغزال البديعة . الربيعيات . المياه والدواليب. ذوات الأطواق . الخمريات . الاستدعاءات . . . . . إلخ .

وفى كل باب منها سجّل جملة من الأبيات قيلت فى غرضه . وهى — ولا ريب — بجمعها معا « خامة » طيبة ، وضالة ينشدها كل باحث يسعى وراء الموازنات ويبحث عن القديم والجديد من المعانى ، وعن المولد والمسروق .

ويتخلل مختاراته استطرادات أدبية قيمة . فمثلا تكلم فى باب الغزل عن حسن الاتباع . وفى باب غزل التورية عن سرقات ابن نباتة من العلاء الوداعى ، وسرقات الصلاح الصفدى من ابن نباتة .

وساق فى خاتمة الكتاب قصصاً منقولة نثرية عن الأولياء والصالحين ، وعظات بالغة عن إنذار المشيب والمجون فيه ، وعن الخضوع والاستغفار . ثم جملة كبيرة من الأبيات الشعرية المفردة فى أغراض شتى ، دون أن تجمعها جامعة .



٥ ــ قهوة الإنشاء [١] :

هذا الكتاب ديوان لرسائل ابن حجة النثرية . جمعه عام ٨٣٢ هـ . كما ورد فى إحدى نسخه . وسجل فيه عشرات من رسائله الديوانية والإخوانية . وأكثرها من رسائله الديوانية . وكلها مكتوب بأسلوبه الفنى .

وتبدو قيمة هذا الكتاب إذا عرفنا ما للرسائل الديوانية فى الممالك الإسلامية من أهمية كبيرة من الناحية التاريخية فضلا عن الأدبية . ذلك لأنها كثيراً ما تتعرض بتفصيل لأحوال الدولة وحوادثها العليا وعلاقاتها فى الداخل والخارج ، مما يجعلها وثائق رسمية يعتمد عليها المؤرخ فيما يعتمد .

وأكثر ما كتبه منشئو الدواوين الإسلامية ، وهو مئات من المجلدات ، ضاع مع الزمان . ولم يبق منه إلا صبابات. ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب أيضاً . ثم إنه ليس كل ما كتبه ابن حجة، بل هو « نهلة من نثره » كما ذكر فى فى خطبته .

٦ ــ جنى الجنتين [٢] :

مما رواه السخاوى فى « الضوء » ، يفهم أن لابن حجة عدة دواوين شعرية من نظمه، منها : الزوائد المصرية . والثمرات الشهية من الفواكه الحموية . وجنى الجنتين . وقطر النباتين . وديوان شعر بديع قال فيه :

دِيوانٌ نظمِى جاءَ وهو مُحَرَّرٌ ... برقيق نظم لفظُهُ مستَعْذَبُ
فإذا بَدَا لا تَسْتَقِلوا حَجْمَهُ ... وحياتِكمْ فيه الكثيرُ الطِّيِّبُ

هذا عدا بديعيته فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتفصيل البردة ، وثبوت

(١) لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً . وبدار الكتب المصرية نسختان منه بينهما فوارق يسيرة بالمكتبة وأخرى تقع كل منهما فى نحو ٢٨٠ صفحة . .

(٢) هذا ديوان لا يزال مخطوطاً ، ومنه نسختان بدار الكتب المصرية . وأخرى بالمكتبة الأزهرية .

العشرة ، وقبول البينات .

مما تقدم نستطيع الجزم بأن ديوانه « جنى الجنتين » غير ديوانه « الثمرات الشهية » . ولكن بدار الكتب مخطوطتان معنونتان فى الفهرس بالعنوانين معاً . وتكادان تتشابهان فى محتوياتهما . وفى خطبة واحدة منهما أنها « جنى الجنتين » . وفى خاتمة الأخرى أنها . « الثمرات الشهية »..

ومهما يكن من أمر ، فهذا الديوان هو ديوانه الوحيد الذى بين أيدينا . وقد جمعه ابن حجة وقد أوشك على الأربعين ، بإشارة بعض أصدقائه. ويحتوى على نحو ألفين من الأبيات فى نحو ست وخمسين قصيدة وعدة مقطوعات وصفية .

وليس فيه مما نظمه بعد الأربعين سوى بديعيته ونحو ثلاث قصائد فى مدح الملك المؤيد ، وقد يكون هناك غير ذلك ، ونظن أن هذه من إضافات النساخ .

وقد صدّر هذا الديوان بالقصيدة البديعية ، وقصيدة أخرى ميمية أيضاً فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام. وكذلك ختمه بقصيدتين أخريين فى المديح النبوى . ثم بأرجوزته « تغريد الصادح » المختارة من الصادح والباغم .

ومن بين ذلك قصائد أكثرها فى المديح وبعضها فى الإخوانيات . وبينها أكثر من موشحة وأكثر من تخميس .

٢ ــ ابن حجة الناقد

والنقد إحدى خصائص ابن حجة . ولعله أهمها وأبرزها وأدلها على شخصيته . وهو غريزة مستقرة فى نفسه ، وملكة متمكنة يقظة ترسل صيحاتها كلما حفزها حافز .

فإذا تصدى للتعاريف العلمية وازن ورجح . وإذا مثل استحسن وعلل ، أو استقبح ودلل . ولا ينى يتعرّض للأسلوب وفنيته فيقعد له ويقنن ، على ضوء



معارفه، وعلى ضوء ذوقه . بل عند ما يسرد قصص التاريخ ونوادر الأدب يمهد أو يعقب . وإذا جمع وألف ، واختار وصنّف، جمع بذوق ، واختار بهدف . وشرح أحياناً وعلق . فالنقد عنده ظاهرة مشتركة بين أعماله ، نراها ماثلة فى الخزانة والثمرات وكشف اللثام والتأهيل .

وأجمع كتبه فى باب النقد « خزانة الأدب » . وعلى نمط منه « كشف اللثام » . وقد عرّفنا بهذين الكتابين . ونعرض الآن لبعض آرائه فى النقدين البلاغي والأدبى .

ونشير قبل ذلك إلى ثلاثة أمور جوهرية كان لها أثر بالغ فى توجيه النقاد ، وفى أساليب الأدباء حينذاك .

الأول : أن النزعة البديعية سيطرت على طبائعهم منذ أواسط العصر العباسى على و ه التقريب . فكانت لها السيادة فى تفكيرهم وأساليبهم . وتزعمها ودعا إليها أفذاذ من رجال الأدب والنقد، وإن افترقوا فى تفاصيلها . وما زال الأمر كذلك حتى برز على مسرح الأدب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى وزير صلاح الدين الأيوبى ورئيس إنشائه . فكان له من نفوذ جاهه فى السياسة ، ومن سعة أفقه فى العلم ، ومن فراهة حيلته فى الأدب ، ومن كثرة نتاجه فى الكتابة والشعر ، ما أحلّ خصائص أسلوبه فيهما محل القدوة ، حتى أصبح بحق إمام الكتاب والشعراء .

وقد دعم بهذه الخصائص النزعة البديعية التى سادت من قبله . وأضاف إليها الاهتمام بالسجع ، والإكثار من التشبيه ، والعناية بالتورية ، والتظرف بالتوجيه والتلميح ، والإفادة من القرآن والحديث وكلام العرب بالاقتباس والتضمين والاقتداء والحل . وغير ذلك من دعائم أسلوبه التى جعلت منه نهجاً جديداً فى الكتابة والشعر يحتذيه الأدباء .

وسار على نهجه هذا أدباء العصر المملوكى . وعلى رأسهم بالتتابع محيي الدين ابن عبد الظاهر ، وشهاب الدين محمود الحلبى ، وشهاب الدين بن فضل الله

العمرى ، وجمال الدين بن نباتة المصرى ، وغيرهم . ولكل علم منهم خصوصيات بيانه ، وإن لفهم البديع جميعاً بطيلسانه .

ونخص بالذكر منهم ابن نباتة . فإنه يعتبر بحق ثانى القاضى الفاضل ، وبخاصة فى الشعر وأسلوبه . حتى عده ابن حجة إماماً جديداً للطريقة الفاضلية . واعتقادى أنه يمتاز عن الفاضل بعذوبة اللفظ وموسيقاه ولطف التورية وسعتها .

ويقول ابن حجة بعدما أورد مختارات عدة من شعر ابن نباتة فى باب التورية[1] « قد تقدم قولى إن الراية الفاضلية هو عرابة[2] مجدها وواسطة عقدها وقائد زمامها ومسك ختامها . وقدمت أيضاً من مشى تحت الراية الفاضلية من ابن سناء الملك إلى الوداعى . ولما رفع العلم النباتى كانت هذه الفرقة التى مشت تحت هذا العلم أكثر عدداً وأشهر ذكراً وأعلى رتبة نظماً ونثراً . »

وبهذا ظلت للنزعة البديعية سيطرتها على تفكير النقاد والأدباء زمناً طويلا ، ولم يخلعوا ربقتها إلا فى العصر الحديث الذى طغت فيه المعانى واستأثرت بالعناية إلى حد كبير .

الثانى : أن ابن حجة سيطرت عليه هذه النزعة البديعية ، ومنهج الفاضل وابن نباتة ، وكان ذلك عماد ثقافته وقوام أدبه . ولم يكن فى ذلك وحده كما بينا .

ولما كان ابن حجة رأس أدباء جيله ، فقد تزعم بدوره هذه النزعة وهذا المنهج . ومجد فى سبيلها القاضى الفاضل وابن نباتة تمجيداً كبيراً ، فأعلن بإعجابه بهما وانضوائه تحت لوائهما . وانقادت آراؤه وأساليبه — فى جملتها لا فى تفصيلها — لما سناه واتبعاه . وامتاز عنهما بالتقنين لهذا المنهج وتحديد خصائصه وبيان محاسنه ، والتمثيل المسهب له .

---

(١) راجع باب التورية فى « خزانة الأدب » .

(٢) عرابة : اسم رجل هو عرابة بن أوس وكان من أشهر كرام العرب فى صدر الإسلام وهو هنا على التشبيه .



الثالث: أن مقومات البيئة وملابسات العصر ، كانت تمكن للنزعات البديعية تمكيناً قويا ، وتدعو إلى هذا التمويه والزخرف فى صناعة الأساليب . ونحن نؤمن إيماناً راسخاً أن البيئة وملابسات العصر يوجهان أساليب الأدباء ويطبعانها بطابع خاص ، وأن قصارى هذه الأساليب أنها رجع لبيئتها وملابسات عصرها ، وإن كنا لا ننكر على الأدباء تأثيرهم الخاص فى أساليبهم .

ومصر كانت تعيش منذ العصر الفاطمى فى جو من البهرج والزيف ، وفى حياة من التمويه والطلاء والتلاوين ، بدا ذلك فى الفن والصناعة والأبنية والملابس والمواكب والاحتفالات والموالد وغيرها .

وامتد ذلك إلى العصر المملوكى . وانغمر الشعب فى لجته تحت تأثير حياته السياسية والاجتماعية . فلا غرابة أن نضح هذا على أساليب الأدباء ، فبدت فى ألوان من الحيل فى إخراج المعانى ، والتمست الزخرف فى تصوير الأفكار ، واصطنعت اللف والدوران والمخاتلة فى عرض الرأى . ومعنى ذلك أن هذه الحياة مكنت للنزعات البديعية كما أشرنا . وما ابن حجة إلا وليد هذه الحياة ، فلم يكن غريباً منه أن تتمكن هذه النزعات من تفكيره وأساليبه ، وأن يصبح زعيماً لها انبثق عنه سياق العصر ومؤهلاته .

وابن حجة جاء فى عصر سبقته عصور شهدت فيها علوم البلاغة والنقد تطورات متعددة ، على أيدى أعلام كابن المعتز وقدامة وابن رشيق والآمدى والجرجانى وعبد القاهر ، ثم السكاكى والقزوينى . وقصارى ما نريد أن نشير إليه فى هذا المقام أن علوم البلاغة الثلاثة : « المعانى والبيان والبديع » نشأت ممتزجة بعضها ببعض ، ليس بينها حدود فاصلة . وكانت منضوية جميعاً تحت اسم «البيان» أو « البلاغة» ، حتى ميز عبد القاهر الجرجانى أبواباً من المعانى وأبواباً من البيان . فلما جاء السكاكى ألف كتابه « مفتاح العلوم » ، وفصل فيه مسائل علوم البلاغة ، وميز أبواب « المعانى » عن أبواب « البيان » ، وجعل « البديع » مكملا لهما . وقفى القزوينى على أثره — وهو من رجال العصر المملوكى —

ففصل البديع عن زميليه وجعله قائماً بنفسه باعتبار أنواعه محسنات كلامية تراعى بعد تمام بلاغة الكلام . وفى ذلك ما فيه من غمط للبديع وعدم تقديره تقديراً سليماً لما يؤديه كثير من أنواعه من وظائف هى من البلاغة فى الصميم .

غير أن الأدباء لم يعيروا هذا الوضع التفاتاً . وظلوا يطوفون فى رياض البديع ، ويقتطفون من أزهارها أحاسن يكملون بها كلامهم ويزودون أساليبهم ، وفى نفوسهم أنه من دعائم البلاغة .

وتزعم هذه النزعة رجال ، كان منهم القاضى الفاضل وابن نباتة — على ما نوهنا — إلا أنهما لم يكونا من علماء البلاغة ولا من رجال النقد إلا لماماً . فلما جاء ابن حجة وتصدى لشرح بديعيته التى بناها على أساس من الألوان البديعية ، وضمن كل بيت فيها نوعاً بديعيًّا ، انساق إلى شرح هذه الألوان ، واعتمد فى ذلك على ما رسمه علماء البلاغة ، ولكن فى كثير من الحرية ، وفى سعة من الذوق ، وفى كفاية من التمثيل . وكان أديباً من أدباء البديع يراعى أصباغه فى أساليبه ، بل كان البديع مزاج أدبه وقوام أسلوبه . فكأنه لم يعجبه الوضع الذى انتهى إليه « البديع » عند السكاكى والقزوينى ، فرد إليه اعتباره ، واعتبر « البديع » هو « البلاغة » ، وتحدث عن ألوان البلاغة أو أكثرها على أساس أنها ألوان بديعية . فكما تحدث عن السجع والجناس مثلا ، تحدث عن الإيجاز والمساواة ، وتحدث عن التشبيه والمجاز والاستعارة . وترى ذلك ماثلا فى الخزانة .

لا مبالغة إذن ، إذا نوهنا بهذه الخطوة الهامة التى خطاها ابن حجة ، ثم إذا اعتبرناه آخر رجل بلاغى ناقد متذوق له رأى ، رد على البلاغة رواءها ، وعلى النقد نضارته . حتى العصر الحديث .

ونعرض بعض آراء ابن حجة فى هذا المقام من باب التمثيل فحسب . فمنها :



براعة الاستهلال :

مجمل ما ارتآه فيها أنها وضوح مطلع الكلام ومعانيه ، مع رقة الألفاظ وسهولتها ، وبعدها عن الخشونة والغموض واستقلال المطلع فى معناه عما بعده ، مع تضمنه إشارة تدل على موضوع الكلام ومضمونه .

واشترط فى الشعر ، فوق ما تقدم ألا يتفاوت قسما مطلعه فيما يتضمنانه من المعانى . وميز بين براعة الاستهلال وبين حسن الابتداء ، ورأى فيها زيادة عنه، أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح ، بل بإشارة لطيفة عذبة يستدل بها على قصده .

وعلل تسميتها ببراعة الاستهلال ، بأن المتكلم يفهم غرضه عند ابتداء رفع صوته به . ورفع الصوت هو الاستهلال .

* * *

الجناس :

وتحدث عن الجناس — وهو توافق لفظين فى الحروف، مع اختلافهما فى المعنى — وأنواعه كثيرة كالتام والناقص والمقلوب والمركب — فاعتبره محسناً لفظياً . ولهذا فهو نوع متوسط من أنواع البديع . ونعى على من أغرم به من الأدباء ، وبخاصة صلاح الدين الصفدى الذى جن بالجناس جنوناً وأثقل به كاهل نثره وشعره ، وألف فيه كتاباً سماه « جنان الجناس » فقرأه ابن نباتة . « جنان الخناس » .

واستحسن ابن حجة الجناس فى حالتين :

الأولى : أن يأتى عفواً من غير كد ولا استكراه . وابن حجة فى هذا متأثر برأى المتقدمين وبخاصة ابن الأثير صاحب « المثل السائر » ، والشهاب الحلبى صاحب « حسن التوسل » .

الثانية : أن يخرج مخرج التورية . وهو مذهب ابن نباتة . وذلك أن يجتمع فى اللفظ الواحد جناس وتورية . وبذلك يزول ثقل الجناس بما تضفيه عليه التورية من عذوبة . مثال ذلك قولك : « من هجا » أو « منهجاً » فأحدهما يحتمل المعنيين ويورى بأحدهما عن الآخر . وقولك : « مازها » تحتمل أنها من الزهو أو من التمييز ، ويورى بأحد المعينين عن الثانى . وهكذا .

ومع استحساننا لرأى ابن حجة ، وهو كما قلنا تقنين لمذهب ابن نباتة ، نراه قد وقع فيما نعاه على الصفدى ، فإن له جناسات غثة متكلفة .

السجع :

هو توافق الفاصلتين المتتاليتين فى الحرف الأخير . وهو أنواع ، فمنه : المشطور والمتوازى والمطرف والمرصع . ولا يبعد ابن حجة فى آرائه فيه عن آراء سابقيه ومنهم ابن الأثير ، والقلقشندى فى « صبح الأعشى » .

وتحدث عن نظام فقراته ، فاستحسن السجعات القصيرة واعتبرها دالة على قوة المنشئ . ومع ذلك لم يربأ سأ من زيادة الفقرة الثانية عن الأولى لالتذاذ السامع بما زاد ، على شرط أن تكون الزيادة قليلة . وعند وجود سجعة ثالثة لا بأس من أن تتساوى الأولى والثانية ، أو تزيد الثانية قليلا عن الأولى ، والثالثة عن الثانية . وهكذا .

واشترط مخالفة كل فاصلة لنظيرتها فى المعنى ، وإلا كان ذلك معيباً .

التورية :

وابن حجة من أبرع من تحدثوا عن التورية ، إن لم يكن أبرعهم جميعاً . وهو فى مقدمة المتعصبين لها . لقد مجد أبطالها وعدد أسماءهم وأرخ طبقاتهم . وأسهب فى بيان أنواعها وسرد الأمثلة الكثيرة لها . وذلك فى خزانة الأدب وكشف اللثام .

والتورية استعمال لفظ له معنيان قريب غير مراد وبعيد مراد . ولها أنواع منها المرشحة والمجردة والمبينة والمهيأة ، ولكل نوع شروط .

واعتبرها ابن حجة من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة . وأن سحرها ينفث فى القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة . . . .

وهذا هو رأينا فى التورية!! ويبدو أن تعصبنا لها وتعصب ابن حجة ، ناشئ من أنها دعامة أساسية قوية البروز فى الأساليب الشعبية بمصر والشام ، اصطنعها أدباء الفصيحة فى كل من الإقليمين ، فلاءموا بذلك بين الفصيحة وبين ذوق العامة ، ودللوا على حسن امتزاجهم ببيئتهم ، وميزوا أدب الإقليمين عن غيرهما .

ويرى ابن حجة أنه لم يتنبه لمحاسنها إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب . ونعى على المقصرين عن الجرى فى مضمارها . وأورد شواهد كثيرة من المستجاد من التورية ، ومن الغث .

على هذا النحو عالج ابن حجة أكثر من مائة وأربعين نوعاً بديعياً فى خزانة الأدب مع الأمثلة الكافية والتعليقات ، والقبول والرد ، ومع النقد والموازنة وبيان المسبوق والمسروق . . . وكثير مما أورده من أدب عصره . مما يعتبر تسجيله والحديث عنه ونقده ، جديداً فى عالم الأدب لم يقتحمه مقتحم قبل ابن حجة . ولم يغفل الأدب القديم فى تمثيله ونقده وموازنته . وهذه النزعة الناقدة ماثلة أيضاً فى غير الخزانة كالتأهيل وكشف اللثام :

٣ ـ ابن حجة الكاتب

وكانت الكتابة الإنشائية الفنية ، الصناعةَ التى احترفها تقى الدين بن حجة وقد تكسب بها فى دواوين الإنشاء .

ولكى نفهم أسلوبه الفنى نرى من المناسب أن نذكر لك أنه كان بالقاهرة فى عصر المماليك ديوان إنشاء ، فى جملة دواوين الدولة . وكان من أهمها ، إن

لم يكن أهمها جميعاً .

ويرجع تأسيسه إلى ما قبل زمن أحمد بن طولون . واتسع اختصاصه منذ عصر الفاطميين . وزاد هذا الاختصاص فى عصر المماليك ، حتى أصبح رئيسه – ويسمى أيضاً كاتب السر – أكبر متصرف فى شئون الدولة بعد السلطان ، فى كثير من الأوقات .

ويتألف الديوان من كاتب السر وهو رئيسه . ومن عدد من كتاب « الدَّسْت » ، وعدد من كتاب « الدَّرج » . وقد لقب رئيسه بكاتب السر منذ عهد الملك المنصور قلاوون .

ومما يختص به كاتب السر تسلم الرسائل الواردة إلى الدولة باسم السلطان وقراءتها عليه فى مجلسه ، وأخذ رأيه فيها ، ثم كتابة الرد عليها . فكان كاتب السر بهذا ، بمثابة مستشار خاص للسلطان فى أكثر شئون الدولة . وينشئ ، بجوار هذا ، أو يأمر بإنشاء أوامر التعيين والتولية لموظفى الدولة كبارهم وصغارهم ، من تقاليد ومراسيم وتواقيع ونحوها . وله غير ذلك من الاختصاصات .

ويجلس كتاب « الدست » معه فى مجلس السلطان يعاونونه فى قراءة الرسائل وعرض المظالم وينشئون الرسائل . ويقوم كتاب « الدرج » بكتابة الرسائل كتابة خطية بعد أن يصوغها كاتب السر أو أحد كتاب الدست .

وكان لهذا الديوان أوضاع ورسوم خاصة فى إنشاء رسائله وفى خطها . وعلى نمط منه كانت هناك دواوين إنشاء أخرى فى عواصم النيابات كدمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها[١] .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن الأسلوب الكتابى المتبع حينذاك فى رسائل الديوان كان أسلوباً أدبياً فنياً له قواعد ودعائم وأصول . وكان قائماً على أساس من خصائص أسلوب القاضى الفاضل الذى سبقت إشارتنا إليه ، والذى سيطر

---

(١) راجع « صبح الأعشى » للقلقشندى و « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله والمجلد الخامس من « عصر سلاطين المماليك » لمحمود رزق سليم .



على أقلام المنشئين والشعراء منذ العصر الأيوبى . وتلخص خصائصه فى التزام السجع وإطالة فقراته ، وفى اصطناع الجناس والطباق والمقابلة ، وفى إيراد التورية والاستخدام ، والتوجيه والتلميح والإبهام ، والاعتماد على التضمين والاقتباس من القرآن والحديث وكلام العرب ، وعلى حل الشعر والنثر فى مناسباتهما ، مع الإكثار من التشبيه والمجاز والاستعارة .

هذه الخصائص راعاها منشئو دواوين الإنشاء فى القاهرة وغيرها فى كتابة الرسائل الرسمية للدولة . مع إضافة التفخيم والمبالغة فى إيراد الأوصاف والألقاب والأدعية للمكتوب عنه أو إليه ، وزيادة ياء النسب على الوصف ، أو تحويله إلى صيغة أفعل التفضيل ، وذلك رغبة فى زيادة المبالغة . فيقال للمكتوب إليه مثلا : العالم التقى الورع الكريم ، أو الأعلم الأتقى الأورع الأكرم ، أو العالمى التقوى الورعى الكريمى ، أو الأعلمى الأتقوى الأورعى الأكرمى . . .

وكثر إطلاق ألفاظ : المقر والمقام والمجلس والجناب ، والعالى والشريف والأشرف ، على كبار الرجال أمراء وغير أمراء ، كل منهم بما يناسبه ، وذلك عند التعظيم .

وتبدأ الرسائل بمقدمات وتفتتح بتحميدات طويلة مناسبة للموضوع ، وبصلوات على النبي عليه الصلاة والسلام مثلها . ثم تختم بعبارات مناسبة . وكثر استعمال ألفاظ : « ينهى . والمملوك . ويقبل الأرض » . وذلك فى أول الرسالة . وألفاظ : « بمنّه وكرمه » ونحوها فى آخرها .

ويراعى فى البدء براعة الاستهلال أى عذوبة اللفظ ووضوح معناه وإشعاره فى خفاء بموضوع الرسالة . ويراعى فى ختامها حسن الختام أى ما يشعر بالانتهاء منها .

على أن لكل لون من الرسائل آداباً ورسوماً مناسبة لموضوعها الرئيسى ،

---

(١) راجع « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمرى .

وكذلك أغراضاً غير رئيسية تتصل بموضوعها الرئيسى . وللرسائل الديوانية أهمية تاريخية لأنها وثائق رسمية سجلت كثيراً من أحوال الدولة واتجاهاتها .

وقد عرفنا ابن حجة ناقداً ينقد على أساس هذه القيود ، فلا غرابة أن رأيناه فى أساليب كتابته وفى شعره أيضاً — على ما سنرى — يصدر عنها ويراعيها بدقة ما استطاع . لقد كان أحد زعماء الطريقة الفاضلية ، تزعمها بعد ابن نباتة وبعد القيراطى ، عن تذوق وفهم وتقدير ، لا عن تقليد ومحاكاة . وهو مؤمن بأنها الوسيلة إلى حسن تصوير المعانى وإبرازها فى أجمل صورها .

وقد كان — كما روينا — متكسباً بالكتابة فى دواوين الإنشاء ، وبلغ من ذلك منزلة رفيعة إذ صار منشئ ديوان الإنشاء الشريف بالقاهرة على عهد الملك المؤيد شيخ ، واكتسب بذلك جاهاً ومالاً .

ويبدو أن هذه الوظيفة أنشئت فى الديوان من أجله خاصة . فلم نسمع بها فى أخبار الديوان من قبله ولا من بعده . ولعله كان بذلك على رأس كتاب الدست ، ويلى فى الرتبة رئيس الديوان . وهذا حظ عظيم .

وقد صار بمرتبته هذه إماماً وقدوة لغيره من الكتاب ، فكان ذلك أدعى إلى تمسكه فى أساليبه بخصائص الطريقة التى يتزعمها .

ويثقل علينا نحن أهل العصر الحديث أن نجلس طويلا إلى موائد هؤلاء الأعلام لنتحسس مافيها من شهى الألوان . ويتأبى ذوقنا أحياناً كثيرة على أفانين أقوالهم ، بل نعجب لهم كيف أضاعوا العمر فى أدب اللفظ وهندسة الأسلوب .

ولكن ينبغى أن نعلم أن لكل عصر أسلوبه . وأن أسلوب العصر رجع لمؤثراته وملابساته . وليس من ابتداع أديب بعينه ، ولا من اختراع ناقد بخصوصه . وأن من الظلم أن نؤاخذ أدباء عصر بمنطق عصر آخر ، دون رعاية لظروفه ، وأن ننزلهم قسراً على أقيسة غيرهم وأذواقهم .

وهذا يذكرنا بخصوصية لابن حجة ، يشاركه فيها بعض أدباء عصره . وهى إقليمية الأسلوب الفصيح وتمصيره .

ونعنى بإقليمية الأسلوب أن تكون له صفات وسمات تشعر القارئ بالإقليم الذى عاش فيه كاتبه . وذلك بأن يحتوى — مثلا — على ألفاظ محلية خاصة بهذا الإقليم ، أو على أمثال وحكم وعبارات مما يتردّد على ألسنة أهله ، ومما اشتقّ من حوادثه وسياق تاريخه ، أو على تشبيهات واستعارات وكنايات لا تنتزع إلا من بيئته ، أو يجرى على دعائم أصيلة ثابتة فى أساليب عوامه إلى غير ذلك .

وموضوع الإقليمية لم يدرس حتى اليوم فى أدبنا دراسة وافية مفصلة وبخاصة من ناحيته التطبيقية .

وابن حجة أحد أدباء مصر والشام الذين ظهرت إقليمية الأسلوب فى أدبهم. وليس اصطناعه للأصباغ البديعية إلا إصراراً منه على الرغبة فى أقلمة أساليبه . ولا سيما التورية والاستخدام والإبهام والتوجيه ومراعاة النظير والتلميح والاقتباس والتضمين والمثل والتشبيه ونحوها ، مما يعتبر أصباغاً ثابتة فى أساليبنا العامية ، نصطنعها اصطناع فطرة وغريزة ، فى البيت والمدرسة والسوق والديوان والملعب وغيره .

ونعرض عليك نموذجاً لابن حجة ، يتبين لك منه شيء مما نذهب إليه . قال فى بشارة له بوفاء النيل :

« ونُبْدِى لِعِلمِهِ الكريم ظهورَ آيةِ النِّيلِ الَّذِى عَامَلَنَا اللهُ فيهِ بالْحُسْنَى وزِيَادةٍ . وأَجْرَاهُ لنَا فِى طُرُقِ الوَفَاءِ عَلَى أَجمل عَادَة . وخَلَّقَ أَصَابِعَهُ لِيزُولَ الإِبْهامُ فَأَعْلَنَ المُسْلِمُونَ بالشَّهَادَةِ . كُسِرَ جَسْرُهُ فَأَمْسَى كُلُّ قَلْبٍ بهذا الكسرِ مَجبُورَا . وأَتْبعْنَاهُ بِنُوروزَ وَمَا بَرِحَ هَذَا الاسمُ بالسَّعْدِ المُؤَيَّدِىِّ مكسُورَا . ودَقَّ قَفَا السُّودَانِ فالرايةُ البَيْضَاءُ مِن كل قِلْعٍ عَلَيْهِ . وقَبَّل ثُغُور الإِسلاَم وأَرْشفَهَا رِيقَهُ الحلُو فمَالَتْ أَعطافُ غُصُونِها إليه . وشَبَّبَ خَرِيرُه فى الصَّعِيد بالقَصَبِ ، ومَدَّ سَبائِكَهُ الذَّهَبِيةَ إلى جزيرةِ الذَّهَب . فَضَرَبَ الناصِرِيةَ واتصَلَ بأُمِّ دِينَار . وقلْنَا إِنَّهُ صُبغ بقُوةٍ لَمَّا

جَاءَ وعَليهِ ذَلِك الاحْمِرَار . وأَطال الله عمْرَ زيَادَتِه فتَرَدَّدَ فِى الآثار . وعمّتْهُ البَرَكَةُ فأَجْرَى سوَاقِى مكةَ إلى أَن غَدَت جنةً تَجْرى مِنْ تحْتِها الأَنْهار . وحضَنَ مُشْتَهى الرَّوْضَةِ فِى صَدْرِهِ وحنَا علَيْها حنُوَّ المُرْضِعاتِ عَلَى الفَطِيم .

وأَرْشَفَهُ عَلَى ظماٍ زُلالاً أَلذ مِنَ المدامةِ للنَّديم

وَرَاق مَدِيدُ بحْرِهِ لما انْتَظَمَت عليه تلك الأَبْيات . وسَقى الأَرض سُلافَتَه الخَمْرِيَّةَ فَخَدَمَتْهُ بحُلْوِ النَّبَات . وأَدْخَلَهُ إلى جَنَّاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَاب فَالِق النوَى وَالحَبِّ . فَأَرْضَعَ جَنِينَ النَّبْتِ وأَحيالَهُ أُمَّهاتِ العَصْفِ والْأَب . وصافَحَتْهُ كُفُوفُ المَوْزِ فَخَتَّمهَا بِخَوَاتِمِهِ العَقِيقِيَّة . ولَبِسَ الوَرْدُ تَشْرِيفَهُ وقال أَرْجُو أَنْ تكونَ شَوكَتِى فى أَيَّامِهِ قَوِيَّه . . . إلخ[1] .

ونلحظ فى هذه السطور ، فضلاً عن إقليمية موضوعها ، ما يأتى :

١ — تعبيرات منتزعة من البيئة المصرية ، ومنها : تخليق الأصابع . إعلان الشهادة . جبر القلوب . تشبيب الحرير بالقصب . التختيم بخواتم العقيق . لبس التشريف . جاء وعليه الاحمرار .

وإنما حكمنا عليها بالمصرية بدليلين :

الأول : تكرر وقوع الحوادث التى تتحقق فيها هذه التعبيرات . وذلك واضح فى « تخليق الأصابع » فقد جرت العادة عند الاحتفال بوفاء النيل حينذاك ، أن تخلّق أصابع مقياسه بالروضة ، فتُدْهَن بالخلوق وهو نوع من الطيب . وكان المقياس ينقسم إلى أذرع ، وتنقسم كل ذراع إلى أقسام تسمى الأصابع .

وواضح أيضاً فى « لبس تشريفه » والتشريف رداء يلبس فى المناسبات

---

(١) الرسالة فى « ثمرات الأوراق » .



الرسمية ، أو يخلعه السلطان على موظف كبير دلالة على رضاه عنه .

الثانى : خلود هذه التراكيب فى لغة العوام حتى اليوم . فلا نزال نسمع فى المناسبات ، فى الريف وغيره أقوالهم : تختم بالعقيق . وأعلن الشهادة . وجبر القلوب . واحمر وجهه .

أما قوله : شبب خريره بالقصب . فتعبير مصرى صميم منتزع من بيئتنا . وذلك أن ماء النيل قبل أن يبلغ القاهرة يمر ببلاد الصعيد على أرض تزرع قصباً . فخريره يشبب به حين مروره فرحاً وطرباً باللقاء .

٢ – توريات لامعة مع مراعاة للنظير دقيقة فى قوله :

الإبهام : يريد الغموض أو الإصبع – والشهادة : يريد شهادة لا إله إلا الله أو الشهادة بالوفاء . – ونوروز يريد نوروز الحافظى الذى خرج على المؤيد شيخ فقاتله المؤيد وقتله ، أو العيد المعروف . – وشبب : يريد غنى وزمر ، أو تغزل ونسب – والقصب : يريد الشبابة أو قصب السكر – والشوكة : يريد السلطة والنفوذ أو إبرة الورد .

٣ – تشبيهات واضحة متنوعة فى قوله :

الراية البيضاء من كل قلع عليه . وقبل ثغور الإسلام . وأعطاف الغصون . وشبب خريره . وأرضع جنين النبت . وكفوف الموز . إلى غير ذلك .

وبعد ، فهذه بعض لطائف أسلوب ابن حجة وخصائصه . على أن له خصوصية جديدة ، تلك أنه يكتب بروح الشاعر المتخيل الذى يخلع أحاسيسه ومشاعره على ما يصفه ، فيبث فيه الحياة ، ويمنحه الإنسانية ، ويهب له العقل ، ويثبت له الإرادة ، ويثير فيه الرغبة ، وينفث فيه الحركة والنبض .

ومصداق ذلك ما تراه فى السطور السالفة من تعبيرات . ومن ذلك قوله :

إن النيل يقبّل . وأرشفها ريقه الحلو . والأغصان تنتشى وتميل . والخرير يغنى ويشبب . وسبائك الذهب تمتد وتتصل بأم دينار . ووجهه عليه الاحمرار . ويرضع جنين النبت . وتصافح كفوف الموز . . . إلى غير ذلك .

هذا ، ومن خصائصه أيضاً سوق أبيات شعرية خلال نثره . قد تكون من أبيات غيره ، أو من أبياته . وربما نظم القصيدة بتمامها وضمنها سطور رسالته . وحسبنا هذا فى بيان خصائص نثره .

ونسجل لك بعض أغراض هذا النثر الذى راعى فيه الأسلوب الفنى ؛ فمنها :

ا ــ رسائله الديوانية « الرسمية » وقد كتب أنواعاً ، ونتاجه فيها أوفر . ومنها :

١ ــ الرسائل السلطانية : وهى المكتوبة على لسان السلاطين . مثل رسالته عن المؤيد إلى صاحب تونس يشرح له قضيته مع الناصر فرج ، ويذكر ما تم له عليه من النصر .

٢ ــ التقاليد والتواقيع : وهى أوامر تعيين لكبار موظفى الدولة كقضاة القضاة وكتاب السر . مثل تقليده عن المؤيد بتعيين الناصرى بن البارزى فى صحابة ديوان الإنشاء بالقاهرة .

٣ ــ البشارات : وتكتب على لسان السلطان تبشر بعودته من فتح وغزو أو من رحلة ، أو بشفائه من مرض ، أو تبشر بوفاء النيل ، ونحو ذلك . مثل رسالته عن المؤيد بعودته من بلاد الروم عام ٨٢٠ هـ وحلول ركبه بحلب وتسجيل ما منّ الله به عليه من الفتح فى بلاد الروم حينذاك .

٤ ــ التفاويض : والتفويض توكيل بنظر عمل ما . مثل تفويض كتبه عن الخليفة المعتضد بالله العباسى ، إلى الناصرى بن البارزى بنظر الجامع الجديد بمصر المحروسة .

٥ ــ المراسيم : والمرسوم من ألوان التواقيع ، وهو أمر سلطانى بتعيين ، أو تنفيذ رغبة سلطانية . مثل مرسومه عن المؤيد شيخ إلى قاضى القضاة علاء الدين ابن مفلح الحنبلى ، بتلقيبه بعالم الإسلام عام ٨٢٣ هـ .

٦ ــ العهود : والعهد رسالة من الخليفة إلى ولى عهده يعهد له بالخلافة من بعده . أو إلى السلطان يعهد إليه بالسلطنة . والنوع الثانى يسمى أيضاً « البيعة » .



مثل العهد الذى كتبه عن المعتضد العباسى إلى السلطان الأشرف برسباى عام ٨٢٥ هـ ، وهو عهد مسهب .

ب – رسائله غير الديوانية . ونتاجه فيها أقل . ومنها :

١ – الإخوانيات : وهى ما كانت بين الأصدقاء فى شوق أو اعتذار أو عتاب أو نحو ذلك . ومنها رسالته إلى شمس الدين العمرى من كتاب الإنشاء بدمشق ، رداً على رسالة له فى الأشواق وشكوى الفراق .

٢ – الرحلات : والرحلة رسالة أو مقامة يقص فيها أنباء رحيله من مصر إلى مصر . ومنها « الرسالة البحرية » التى كتبها إلى البدر الدمامينى عام ٨٠٢ هـ يصف له فراره من الحرب بطرابلس الشام إلى القاهرة .

٣ – المقالات الوصفية : وتكون فى وصف أداة أو منظر أو حدث . ومنها مقالته فى وصف السكين وتسمى « رسالة السكين » .

٤ – المطارحات والمعارضات : وهى مقالات تكتب فى موضوعات سابقة ، رغبة فى التفوق على ما كتب فيها . مثل مطارحته فى وصف الخيل لما كتبه الحلبى وابن فضل الله وابن نباتة . وقد جمع هذا كله فى كتاب وسماه « مجرى السوابق » . ومثل معارضته للقاضى الفاضل فى وصف حمام الرسائل .

٥ – الأهاجى : وهى مقالات فى الذم نقداً أو سخرية أو نحو ذلك . ولم نعثر لابن حجة بأكثر من مقالة فى هذا الباب . ولا تخلو قصتها من طرافة . فقد ألف القاضى بدر الدين محمود العينى سيرة للمؤيد شيخ وسماها « الجوهر » وهى أرجوزة فى نحو ٤٨٠٠ بيت سوى ما استشهد به من أبيات المتنبى وغيره . فأجازه المؤيد عليها . إلا أن العلماء نقدوها أمام المؤيد ، فطلب إليهم تسجيل نقدهم . فكتب ابن حجر العسقلانى فى ذلك كتاباً . وكتب ابن حجة أهجيته الناقدة هذه ، وكلها هجاء للبدر العينى تحت ستار النقد .

٦ – التقاريظ : وهى مقالات مدح لكتاب أو قصيدة مثلا . ولابن حجة

تقاريظ كثيرة . مثل تقريظه لكتاب « حلبة الكميت » لشمس الدين النواحى . وتقريظه المبهم للسيرة المؤيدية التى كتبها ابن ناهض الفقاعى ، وأشرنا إليها .

٧ — رسائل التلاعب بالألفاظ : وهى ما تكتب لإظهار البراعة فى ضرب من الكلمات أو الأسلوب . ومنها رسالته المهملة وكتبها عام ٨١٤ هـ ، وكل حروفها غير منقوطة . ومنها رسالة ورّى فيها بأسماء سور القرآن الكريم[١] .

هذا ولابن حجة ألوان أخرى من الرسائل ، ضربنا الذكر صفحاً عنها . ولا بد لنا من التنويه هنا بأن هذه الأغراض التى كتب فيها ابن حجة ، كانت فى مقدمة أغراض الكتابة فى عصره ، وأنها كانت رائجة السوق حينذاك ، وموضع التنافس والمباراة بين الكتاب ، ومظهر إجادتهم .

ولم يكن ابن حجة من كتاب المقامات والقصص والموازنات مع بروز هذين النوعين فى زمانه بين أغراض الكتابة وبخاصة فن المقامات .

وبعد ، فقد كان ابن حجة أوفر نتاجاً فى الرسائل الديوانية ، وأقل فى غيرها قلة واضحة ملموسة. ومع أن الرسائل الإخوانية الخالصة لوجه الصداقة ، كانت من أكثر ما يتبارى فيه الكتاب فى ذلك الزمان . — ولصلاح الدين الصفدى ، مثلا ، ديوان رسائل إخوانية كبير — لم نجد لابن حجة إلا عدداً قليلا منها ، مع كثرة أصدقائه وسنوح الفرص للكتابة إليهم . فلعل له رسائل منها وأصابها الضياع والنسيان . أو لعله اكتفى عنها بما كان له فيهم من القصائد الشعرية .

والأسلوب الفنى كان طاغياً فيما يكتبه ابن حجة . ومع ذلك فقد جنح فى بعض ما كتب إلى الأسلوب العلمى . يبدو ذلك بخاصة فى خزانة الأدب وكشف اللثام ، حينما يتعرض للتعاريف العلمية والموازنات ونحوها . فيترسل ولا يتأنق ، وينطلق ولا يتقيد ، ويتحلل من اصطناع دعائم أسلوبه الفنى ، فيهجر السجع ويقصر الفقرات ويترك المطابقة والمقابلة والتورية وما إلى ذلك ، فليس هناك

(١) رسائل ابن حجة التى نوهنا بها مسجلة فى « قهوة الإنشاء » أو « الثمرات » أو « الخزانة »



ضرورة تقتضى ذلك ، فضلا عن أنه قد يعوق المعنى ويمنع إيضاحه .

ومع هذا كله تراه لا يصبر طويلا للأسلوب العلمى ، وسرعان ما يعود إلى قواعده وفنيته .

٤ ـ ابن حجة الشاعر

ا ـ تمهيد :

وكما برز ابن حجة فى النثر برز فى الشعر . ويشهد لذلك تساوى نتاجيه فى الفنين . غير أنه على ما يبدو لنا كان أشد حرصاً على اشتهاره بالشعر . فقد كان فيه حركة دائبة ، وكان لا ينى يعان بنفسه شاعراً فى كل مناسبة تتاح له .

فعند ما شب أخذ ينظم الزجل والمواليا ، ثم أخذ يعالج نظم الشعر . وما إن استقام عوده فى نظمه حتى مدح به أصدقاءه وأعيان بلده . وسرعان ما تيسر له الاتصال ببعض الأمراء فمدحهم وأغدق الثناء عليهم لما تم على أيديهم من الفتح المبين ، ولذودهم عن بلاد المسلمين . ثم أخذ يطوف الأمصار ويتجول فيدخل دمشق ويمدح قاضيها ابن جماعة . ويدخل القاهرة ويعرض شعره على أديبها فخر الدين بن مكانس فيقر له . ويجالس ابنه مجد الدين فيطارحه .

وما إن تتوالى به الأيام حتى نراه ، وقد عقدت الصداقة أواصرها بينه وبين كثير من علية الناس فى زمانه ، ومن كبار أدبائهم . فيراسلهم ويراسلونه ، ويمدحهم ويمدحونه ، ويطارحهم ويطارحونه ويلغز إليهم ويلغزون إليه ، ويقترحون عليه فيستجيب لمقترحاتهم . ويتشوق إليهم ويتشوقون إليه . ويغترب عن حماة ، فيشغله الحنين إليها ، ويشغله الشوق نحو أهلها . فيبكى لها غربته ، ويشكو لها أشواقه .

ثم يتصل بالملك المؤيد شيخ ، فيعلى مكانته ويكرم صلته . فيمدحه

ابن حجة ويثني عليه ويسجل انتصاراته على أعدائه . ويضيف بذلك رصيداً جديداً إلى أدب الحرب .

ثم لا يفتأ بين آونة وأخرى يصوغ المقطوعة البديعيه ، فى تورية مستحدثة ، أو مطابقة مستجدة ، أو تشبيه مبتكر ، أو معنى تنافس فى إخراجه الشعراء ، أو غير ذلك . تدفعه غريزة فنية ، ونزعة بديعية . فيصف ويتغزل ، أو يلغز ويحاجى ، أو يمدح ويثنى . وهو بصنيعه مزهو معجب ، وفرح طروب .

وما زال فى هذه الحركة الدائبة والإنتاج المستمر ، حتى خلف ثروة شعرية ضخمة ، تتمثل فى دواوينه المتعددة . وحتى بلغ من جيله مكانة الزعامة فى الشعر ، حتى عده ابن حجر العسقلانى — وهو قاضى قضاة ، وأحد معاصريه — رأس هذا الفن فى زمانه .

من هذا وذاك ترى ألواناً من المؤثرات دفعته إلى قول الشعر .

ونعتقد أنه لو أتيح لنا أن نظفر بجميع دواوينه ، لوقفنا منه موقفاً آخر ، ولوفقنا إلى إنصافه على جهوده . فليس لدينا من شعره غير ما سجله فى « الثمرات الشهية »، عدا متناثرات فى بعض كتبه . وشعره فى الثمرات هو بعض ما نظمه قبل الأربعين . وأضاف إليه النساخ قصائد أخرى . وقد لاحظنا أن شعر الشباب مفقود، وهو — عادة — يكون فى الغزل والأمل والوصف وخصوصيات الشاعر ونفسياته . ولاحظنا أن شعره الذى نظمه بعد الأربعين وبخاصة وهو فى خدمة الملك المؤيد بمصر ، قليل ، لا يتناسب مع نضجه فى نظم الشعر ، ولا مع طول الزمن . فقد عاش بعد الأربعين نحو ثلاثين عاماً ، فأين ما نظمه فى هذه السنين ؟ هل أكدى هو وأجبل ؟ . الشواهد تدل على أنه استمر ينظم الشعر . وأين ما نظمه وهو فى خدمة المؤيد ، فقد عاش فى خدمته بمصر نحو تسع سنوات ، وليس له غير قصيدتين أو ثلاث فى مدحه . إحداها الرائية الطويلة نظمها عقب استدعائه إلى القاهرة مباشرة ليعين فى الديوان .



وقد طلب إليه نظمها ، على أن يضمنها حوادث المؤيد وانتصاراته .

اعتقادنا أن كثيراً من شعره قد ضاع . وأن ديوانه الكبير قد فقد ، وأن ما تبقى قليل بالنسبة لما نظم . هذا هو ما نفهمه عن هذا الشاعر على ضوء نشاطه وحيويته .

وقد شهد عصر المماليك ست طبقات من الشعراء ، لكل طبقة منها زعيمها ورائدها . وفى كل طبقة منها عشرات من الشعراء . وهى طبقات متواصلة متتابعة لكل نصف قرن طبقة منها .

وقد أدرك ابن حجة رجالا من الطبقة التى سبقته ، وهى الطبقة الثالثة التى من رجالها البرهان القيراطي والبدر بن الصاحب ، والمعز الموصلى ، والفخر ابن مكابس ، والشهاب بن العطار .

ويعتبر ابن حجة رأس الطبقة الرابعة ، ومن رجالها جلال الدين بن خطيب دارياً ، وابن أبى الوفاء السكندرى المتصوف . وشمس الدين بن المزين وعلاء الدين بن أيبك ، وشهاب الدين الباعونى ، وزين الدين بن الخراط ، وشمس الدين بن كميل ، وبدر الدين الدماميني . والبدر البشتكى ، وابن حجر العسقلانى ، وشمس الدين النواجى تلميذ ابن حجة .

ب ــ فنون شعره :

مما تقدم ترى أن ابن حجة دفعته ظروف حياته إلى أن ينظم الشعر فى أغراض متعددة ، منها المديح النبوى والمدح والغزل والوصف والإخوانيات وأدب الحرب والألغاز ، والشوق والمجون والشكوى ، وغير ذلك . ونجتزئ بوجازات عن بعضها فنقول :

١ ــ المديح النبوى :

لابن حجة فى هذا الغرض أربع قصائد مثبتة فى ديوانه « الثمرات الشهية »

إحداها «البديعية» ومطلعها :

لى فى ابتدامدحكمْ ياعُرْبَ ذِى سَلَمِ براعةٌ تَسْتَهِلُّ الدَّمْعَ فى العَلَمِ (١)

وميمية تسمى « أمان الخائف » ومطلعها :

شَدتْ بكمُ العشاقُ لما تَرَنَّمُوا فَغَنَّوا وقد طابَ المَقامُ وزمزمُ

ولامية يعارض بها « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، لأنها من بحرها ورويها. ومطلعها :

فى قِتْلَتى لعُيُونِ السهْلِ تشهيلُ وما لِموْتِىَ عند الخدِّ تقبيلُ (٢)

وقافيّة يقول فى مطلعها :

أُغرِّدُ فى أَفنانِ وَجْدى بكم عِشْقَا فلاتذكُرُوا مِنْ بعدِ تغريدىَ الوَرْقا (٣)

وقصائده فى هذا الفن تدور حول معان مشتركة ، قصاراها الغزل فى المبدأ وذكر أماكن الحجاز وإعلان التشويق إليها وإلى ساكنيها ، والحنين إلى رؤيتها ، وذلك رمز إلى الرسول . ثم التخلص إلى مديحه عليه الصلاة والسلام وذكر بعثته وأهميتها ، والثناء المستطاب على علم الرسول وأخلاقه الكريمة ، والإشارة إلى أبرز الحوادث فى سيرته الشريفة . ونحو ذلك .

وهذا النهج نمط مستحدث فى عصر المماليك ، ابتكره شرف الدين البوصيرى ونظم بردته الشهيرة على أساسه ، فنقل به فن المديح النبوى من باب السياسة والمذهب ، إلى باب الغزل والوجد . وقفى على آثاره شعراء العربية حتى اليوم ، سواء منهم شعراء البديعيات وغيرهم .

ونحدثك فى هذا المقام عن القصيدة البديعية فحسب لما لها من الأهمية . وتسمى أيضاً « تقديم أبى بكر » وقد نظمها ابن حجة على نمط بردة البوصيرى فى بحرها ورويها . وضمن كل بيت فيها نوعاً من البديع ، على الأقل ، مع

---

(١) العلم : جبل

(٢) الشهل : جمل أشهل وشهلاء ، والشهلة أقل من الزرقة فى حدق العين .

(٣) الورقاء : الحمامة ، والجمع ورق بضم فسكون .



الإشارة إلى اسم هذا النوع بكلمة ما . فجمع بذلك بين اسم النوع والتمثيل له .

وقد نظمها معارضة لبديعيتى الحلى والموصلى ، بإشارة من صديقه الناصرى ابن البارزى رئيس ديوان الإنشاء بالقاهرة حينذاك .

وقد ظهر فن البديعيات فى عصر المماليك ، ابتكره صفى الدين الحلى ، أو ابن جابر الأندلسى . وقصاراه نظم المدائح النبوية على نمط بردة البوصيرى ، وتضمين الأبيات أنواعا بديعية (١)

ونظم الحلى بديعيته فضمن أبياتها أنواعاً بديعية دون أن يسميها . ونظم عز الدين الموصلى بديعية اكتفى فيها غالباً بتسمية الأنواع دون التمثيل لها . فأراد ابن البارزى أن ينظم ابن حجة بديعية يجمع فيها بين الميزتين .

واتبع ابن حجة طريقة فريدة فى النظم ، فكان ينظم البيت ويعرضه على ابن البارزى فينقده ويعيده إليه مع ملاحظاته ، فيهذبه ابن حجة ويعرضه عليه ثانياً حتى يقره ، فينتقل إلى غيره . وهكذا .

وتفهم من هذا ، طريقة من طرق نقد الشعر وتهذيبه ، فى ذلك الزمان .

وتبلغ أبيات بديعية ابن حجة أكثر من ١٤٠ بيتاً ، فى كل منها نوع بديعى على الأقل . ونظمها على هذا الأساس، أطغى عليها النزعة البديعية ، وجردها من حسنات الشعر أو كاد . والمجهود الذى بذل فى نظمها — وهو كبير — كان أولى أن يصرف إلى ما يجدى من ألوان الشعر مما تمس حاجة الأمة إليه فى حينها كالنقد الاجتماعى والشعر السياسى .

٢ — المدح :

أكثر قصائد ابن حجة المثبتة فى « الثمرات الشهية » فى فن المدح . وتارة تكون مدحاً لملك أو أمير أو رجل من أعيان زمانه ، دعت إلى مدحه حادثة كانتصار فى حرب أو نجدة فى شدة . وتارة تكون مدحاً إخوانياً حفزت إليه صداقة ومحبة ، أو اغتراب وشوق ، أو إعجاب بعلم أو أدب أو خلق .

---

(١) راجع حديثنا عن البديعيات فى « صفى الدين الحلى » من سلسلة نوابغ الفكر العربى .

واعتقادنا أن ابن حجة لم يتكسب بشعره ، كما كان يتكسب به صفى الدين أو ابن نباتة من قبله ، ولم يستخدم المدح وسيلة إلى الارتزاق . ويبدو أن تكسبه بالكتابة فى الدواوين ورواج سوقه فى ذلك ، قد عصمه من الاحتراف بالشعر . وليس فى تاريخ حياته ما يدل على احترافه . ولا ما يدل على أنه صادف أجراً على مدائحه إلا الود والمحبة وإلا حسن الاتصال .

وقد رُوى أنه لما استقدم من دمشق إلى القاهرة فى أوائل حكم المؤيد شيخ ، طُلب إليه أن يمدح[1] المؤيد وأن يسجل حوادث انتصاراته . فنظم قصيدته الرائية ، فمنحه المؤيد تشريفاً ، وعينه منشئاً لديوانه ونعتقد أن هذا التعيين كان مرتباً من قبل ، ولأجله استقدم .

نعتقد أن هذه من الحوادث الفردية التى لا اطّراد لها . فلم تكن من سياسة رؤساء هذا العصر إثابة الشعراء .

وقد مدح ابن حجة الملك المؤيد . فإن له مواقف فى التاريخ حاسمة ، فقد انتصر على الناصر فرج وخلص الناس من شروره . وانتصر على الأمير نوروز الحافظى ودق عنقه وخلص بلاد الشام من عبثه . وغزا فى بلاد الروم وفتح بعض مدنها وكف أذى حكامها عن بلاد سلطنته ، إلى غير ذلك .

ولابن حجة فيه أكثر من مدحة . ونعتقد أن بعض أمداحه فيه فقد . ومن أجل مدائحه مطولته التى أنشدها بين يديه عقب استقدامه له إلى القاهرة فى أول حكمه ، والتى مطلعها .

كأسُ المَسَرَّةِ فى البريةِ دائرُ والمُلكُ بالمَلِكِ المُؤَيَّدِ زاهرُ

ومدح الأمير تمربغا الأفضلى الشهير بمنطاش الأشرفى ، الذى كان كافلا لنيابة حماة . وقد انتصر على أعداء الدولة فى بعض المواقع ، وله تاريخ حافل

---

(١) راجع ديباجة هذه القصيدة فى « الثمرات الشهية » .



بالمغامرات[1] ومطالع مدحته قوله :

اللهُ أكبرُ جيشُ الظُّلمِ قد كُسِرَا ‏ ‏ ‏ ‏ والحمدُ للهِ جيشُ العدلِ قد نُصِرَا

ومدح المقر الأشرف الزيني عمر بن الهدياني وكان أيضاً كافلا لحماة ، دخل إليها بعد رحيل تيمورلنك عنها بيوم واحد فأطفأ حريقها وشرع فى عمارتها . فقال ابن حجة :

عمرٌ تنبَّهَ للخلائِقِ فارْقُدُوا ‏ ‏ ‏ ‏ مُتوسدِينَ الأَمرَ لا تَتَشهَّدُوا[2]

وعلى هذا النسق كان مدحه للأمراء وأعيان الدولة وأصدقائه فأضاف رصيداً جديداً إلى أدب الحرب — كما قلنا — وسجل انتصارات المسلمين من سكان هذا الوطن العربى الشامل المتحد تحت راية القاهرة حينذاك ، على أعدائه الطامعين .

ويمزج ابن حجة مديحه بذكر الحرب وما كان فيها من شدة وبلاء ، وما بدا فيها من شجاعة ومضاء ، أو ما استعمل فيها من أدوات الفتاك ، ويغادى بين المدح والحماسة والوصف مغاداة البارع الطواف فى هذه الوديان. ويلائم بين أجزاء صوره بما ينتزعه خياله من مرائيها ، فلا تدرى وأنت تقرؤه ، أمدحاً تقرأ ، أم حماسة أم وصفاً .

وهو ينتزع معانيه الجزئية وتشبيهاته فى أمداحه من صناعات ممدوحيه ، ومما اشتهروا به من فضل ، ويجنح إلى المبالغة المقبولة ، والافتراضات الأدبية الطريفة أحياناً .

لقد مدح — مثلا — المقر الأشرف الأمينى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، فقال :

لهُ قَلَمٌ آمنتُ باللهِ إنْ بَـدَا ‏ ‏ ‏ ‏ وسطَّرَ فوق الطرْس[3] مِنْ نَظْمِهِ سَطرَا

رأيتَ عَصَا مُوسى بكفِّ محمد ‏ ‏ ‏ ‏ وقد لَقِفَتْ أقوالَ من صَنعَ السِّحْرَا

---

(١) منطاش الأشرفى توفى عام ٧٩٥ هـ . راجع ترجمته فى « الدرر الكامنة » ج ٤ رقم ٩٩٥ .
(٢) متوسدين الأمر : مسرعين فيه أو مطمئنين إليه . — لا تتسهدوا : لا تأرقوا .
(٣) الطوس : الصحيفة . ولقف : تناول بسرعة .



ومدح ابن جماعة وهو قاض فقيه فقال :

قاضى القضاةِ الَّذِى مَنْ جاءَيقصِدُهُ   فيا حَوَائِجَــهُ ما كَانَ أَقضاكِ

٣ ــ الغزل :

وغزل ابن حجة ليس غرضاً أساسيًّا من أغراضه ، ينظم فيه القصيدة الكاملة . قد ينظم فيه المقطوعة ذات البيتين أو الثلاثة ، ولغرض بديعى فى أغلب الأحوال . ولكنه لم ينظم فيه قصيدة برمتها خالصة لوجهه .

ومع ذلك ظفر الغزل من مطولاته بقسط وافر . ذلك أنه يفتتح أمداحه بها ، ويطيل فيها ، حتى لقد يستهلك الغزل فى بعض مدائحه أكثر أبياتها . ولا يظفر الغرض الرئيسى منها إلا بأبيات قليلة . ترى ذلك ماثلا ــ بخاصة ــ فى مدائحه لشيوخه أو لأصدقائه . كما ترى للغزل نصيباً بارزاً فى نبوياته . أما مدائحه للملوك والأمراء فقد برئت ــ غالباً ــ من مقدمات الغزل .

لا ندرى كيف نعلل هذه الظاهرة فى شعر ابن حجة . فلعله لم يعشق ولم يدر ما الهوى ، فأبى طبعه أن يستجيب لما لا تحسه ؟ وإنما نظم الغزل فى مقدمة أمداحه استدراراً للشاعرية ، وترفيهاً عن النفس وتحميساً لها .

ولعل لابن حجة غزليات مستقلة فى مطالع شبابه ، ذهبت مع ما ذهب من شعره .

وهو فى غزله رقيق الحاشية ، عذب الإشارة ، مليح العبارة ، تحسه جدولا رقراقاً فى هدوء ، متدفقاً فى سكينة ، بعيد ما الشطين فى أمن ، على الرغم مما يئود عباراته من رعاية للنظير دقيقة ، ومن اصطناع للتشبيه كثير . ومن أصباغ بديعية صارخة .

٤ ــ الحنين والشوق :

أبرز ما اتجه حنين ابن حجة إليه ، وأثار أشواقه ، مدينته حماة ، محل ميلاده ومجمع أوطار فؤاده ، لما فيها من المغانى والمفاتن ، وطيب الذكريات ،



وجميل الصداقات . فكان يناجيها وينظم القصائد فى حبها ، ويملأ بذكرها إخوانياته . ويبدو أنه كان طول اغترابه عنها قلق البال غير مستقر النفس ولا راضى العيش ، على الرغم مما صادفه من اتساع جاه وكثرة مال . فعاون هذا كله على حنينه وشوقه إلى بلده ومن فيه من الأهل والأحباب والخلصان . فطفق يذكرها ويذكرهم كلما سنحت له سانحة وواتته مناسبة . ويشكو لها ولهم عنت الدهر ومرارة الفراق .

مدح القاضى علاء الدين بن القضامى الحنفى ، فضمن مدحته عشرين بيتاً ونيفاً فى ذكر حماة . وكذلك كتب إلى ابن البارزى رسالة وبها أكثر من عشرين بيتاً فى التشوق إلى حماة ، وهى عذبة رقيقة .

وعلى هذا النسق كانت شوقياته وإخوانياته يجللها المديح وتزينها شعارات المودة والمحبة والاعتراف بالفضل والجميل .

٥ ــ الوصف :

اهتم ابن حجة بالوصف باعتباره غرضاً رئيسياً يقصد لذاته . فضلا عن أنه من دعائم تعبيره ووسائل تصويره فى أغراضه الأخرى . فإذا مدح وصف ، وإذا تغزل وصف ، وإذا ألغز وصف ، وهكذا تراه يصف حادثاً أو أداة أو منظراً مثلا .

ويحفزه إلى الوصف حافزان أساسيان فى أدبه هما صناعة البديع وصناعة التشبيه بشتى أشكالهما . فهو كما يلجأ إلى هاتين الدعامتين لإجادة تصوير معانيه ، تدفعانه دفعاً إلى اصطياد المعانى . فكثيراً ما كان الشعراء يحتالون ويتنافسون لإيجاد معنى يستطاع به استخدام لفظ فيه تورية أو جناس أو مطابقة أو اقتباس ــ مثلا ، أو يحلو فيه تشبيه أو تجمل استعارة . ويقنع الشعراء بالبيت أو بالمقطوعة يسكنون بها ما ظفرت به أخيلتهم البديعية من صنوف المعانى ، فأربت مقطوعاتهم على مئات . وعلى هذا الغرار سار ابن حجة . فتارة كان حب

الوصف يدفعه إلى اصطناع البديع والتشبيه ، وتارة كان حبهما يدفعه بدوره إلى الوصف .

ولا ننكر أن فى هذا كله ضروباً من التكلف . ولكن مع هذا سلمت لابن حجة أبيات كثيرة فى باب الوصف تخففت من التكلف وجنحت نحو العذوبة والجودة .

٦ ـ اللغز :

اللغز ضرب من التعمية فى الأسلوب ، وتعمد الإبهام فيه ، ويورى فيه بظاهر المعانى عن خفيها ، والخفى هو المراد . ويعتمد الشاعر فى اللغز على الوصف بأدواته كافة ، وفى مقدمتها ألوان البيان . ويصطنع ألفاظاً من ألفاظ الاشتراك والتضاد أو مما يصلح فيه التصحيف والتحريف والعكس ونحو ذلك .

من هذا وذاك ترى مبلغ ما فى نظم الألغاز من فن وصناعة ، ومقدار ما يتطلبه من ذكاء وخبرة .

وفضلا عما فى نظمها من أدب أصيل ، كما رأيت ، فإن لها أهدافاً كبيرة الأهمية فى حياة الإنسان كالتفكه والتسلية وملء الفراغ بما يغذى النزعة الأدبية ، واختبار الذكاء ، وإحياء المودة بين الأصدقاء . إذ أن من طبيعة اللغز التراسل به بين الأدباء وطلب الحل .

وقد راج هذا الفن الشعرى فى عصر المماليك ، وأكثر ما راج بين الأصدقاء واتخذته الفنية الشاعرة وسيلة من وسائل إحيائها ، ونظم فيه فحول شعراء العصر القصائد الكاملة التى توحى دراستها بأصالة وفن .

وابن حجة من شعراء اللغز وفى مقدمتهم . راسل به واقترح عليه ، واقترحه . واعتمد فيما نظمه منه على ما أشرنا إليه من الدعائم . ومما ألغز فيه : « قصب السكر » و « كرمة » و « درة » .

٧ ــ الإخوانيات :

الحق أن الإخوانيات استأثرت بكثير من قصائد ابن حجة ، لما كان بينه وبين علية جيله من حسن الصلة وجميل المودة . ولقد كانت العلاقات الشخصية من أهم الحوافز إلى نظم الشعر ، ومما استندت إليه الفنية الشاعرة واتخذته وسيلة إلى الحياة والبروز ، فى ذلك الزمان المجدب من أسباب الحياة الشعرية المنتجة .

وقد اتصلت إخوانياته وما تقوم عليه من بث شوق أو تقديم اعتذار أو عرض شكاية أو ابتداء عتاب ، أو غير ذلك ، ببعض الأغراض الأخرى كالمدح واللغز والمجون .

ومن أرق ما نظمه من ذلك ، قصيدته فى العتاب إلى المقر الأشرف الأمينى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق . وكانت قد وقعت بينهما وشاية تحقق من بعد أنها مكذوبة ، ولكن كانت قد عطلت بينهما المراسلات . فكتب إليه ابن حجة يقول :

مِنْ بأَسيافِ هَجْرِهِمْ كَلمُونا ... ما علهم لوأَنَّهُمْ كَلَّمونَا
أَغلقوا بابَ وصلِهِمْ فتَحَ اللـ ... ـهُ لهمْ بالهناءِ فتْحًا مُبينَا
مَلَكُوا رقَّنَا فَصِرْنَا عَبيدًا ... لَيْتَهُمْ بعد رقِّنَا كاتَبُونَا
وَغَدَوْنَا لَهُمْ أَرِقَّا ولكِنْ ... قد تَجَافَوْا بالهجر مُذْ رَقَّقُونا إلخ [1]

حـ ــ أساليبه الشعرية :

نعتقد أننا لسنا فى حاجة كبيرة إلى الحديث التفصيلى عن أساليب ابن حجة الشعرية وبيان خصائصها ، بعد الذى درسناه فى أساليبه النثرية . فهما صنوان صادران عن ذوق واحد ومذهب واحد، وهو فى الواقع ما فصلنا الحديث عنه

---

(١) كلمونا : جرحونا . ــ والمكاتبة : المراسلة ، أو أن يكاتبك عبدك على نفسه بثمن فإذا أداه عتق . وفى اللفظ تورية . ورققونا : ملكونا واسترقونا وجعلونا أرقاء .

فى فصل النقد . وقد رأينا ابن حجة زعيماً متعصباً للطريقة الفاضلية والنباتية ، ورأيناه أقام نقده على أساس راسخ من البديع وأصباغه ، وعلى دعامة ثابتة من التشبيه بأشكاله . وعلمنا فيما مر كيف نظم بديعيته فى مديح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضمن كل بيت منها نوعاً على الأقل . فبلغ مجموع الأنواع فيها أكثر من ١٤٠ نوعاً هى أكثر ما عرف إلى عهده .

فلا بدع إذن حينما نرى أساليبه الشعرية قائمة على هذه الدعائم والأصباغ . غير أنه كان كثير الإقبال على بعضها دون البعض ، لا عن عجز ، ولكن عن تذوق . ولا عن تقصير ولكن عن تأبٍّ . فقد كان مشغوفاً — مثلا — بالتورية ويعتبرها من أغلى أنواع البلاغة ، ومستثقلا للجناس الذى لم تخرجه التورية عن عقادته ويعتبره نوعاً متوسطاً . وقد نعى على من قصر من الأدباء عن الجرى فى مضمار التورية ، وعلى من أغرم منهم بالجناس فأثقل به شعره . إلى غير ذلك من آرائه التى نثرها فى الخزانة وكشف اللثام . ولهذا أقبل إقبالا بارزاً على نظم التورية ، حتى عد من فرسانها . ومع ذلك فلم يسلم شعره من عبث الجناس . . .

ونستطيع القول إن من الأنواع التى أكثر من اصطناعها فى شعره ، براعة الاستهلال وحسن التخلص ورعاية النظير والتورية والإبهام والإيداع أى « التضمين » والاقتباس والتوجيه والتشبيه والاستعارة .

وكما اعتمد عليها فى إبراز صوره ومعانيه ، حفزته بدورها — كما أشرنا — إلى اصطياد المعانى وابتكارها . واتضح هذا فى مقطوعاته التى حفزه حب البديع إلى نظمها . أما قصائده المطولة فقد ترى فيها الأبيات المتتالية خالية من كلف البديع بريئة من عسف الصناعة ، جارية على سبيل من الفطرة والطبع .

على أن لهذا الشاعر خصوصية وهى سموه بشعره فى جملته إلى مستوى من الجزالة محمود ، مع تعفف عن استعمال اللفظ السوقى أو العبارة العامية أو الكلمة



المبتذلة أو المثل البلدى أو نحو ذلك ، مما أقبل عليه شعراء عصره ويعتبر إحدى سماتهم ، كالبوصيرى وابن عبد الظاهر والحلى وابن الوردى وابن نباتة .

د — عيوب شعره :

وقع ابن حجة فى عيوب شعرية ، لم يخل منها شاعر فى عصره ، ومنها :

١ — السرقات . وهى أن يأخذ الشاعر من غيره من الشعراء لفظه أو معناه أو هما معا . وقد تتبع ابن حجة سرقات الشعراء قديمهم ومحدثهم ومنهم ابن نباتة والصفدى . فرزق بمن تتبع سرقاته ، ومنهم أبو بكر العلوى الحسينى فى كتابه « إقامة الحجة » ، فأوضح فيه سرقاته فى البديعية . ومنهم تلميذه شمس الدين النواجى فى كتابه « المحجة فى سرقات ابن حجة » وهو حافل ممتع فى بابه ، وإن كان فيه كثير من التحامل[١] .

ومن نقدات العلوى أن عز الدين الموصلى مطلع بديعيته قوله :

براعةٌ تستَهِلُّ الدَّمْعَ فى العَلَمِ عبارةٌ عن نِدَاءِ المفردِ العَلَمِ

فأخذ ابن حجة شطره الأول وجعله عجزاً لمطلع بديعيته :

لى فى ابْتِدَا مَدْحِكُمْ يَا عُرْبَ ذِى سَلَمٍ بَرَاعَةٌ تستهلُّ الدَّمْعَ فى العَلَمِ

ومن نقدات النواجى أن جمال الدين بن مطروح قال متغزلا :

إِذَا ما اشتَهَى الخَلْخالُ أَخبارَ قرطِهَا فياطيبَ ما تُملِى عليه الضفائرُ

فأخذه ابن حجة فقال :

غَدَا شَعْرُهُ يُمْلِى عَلَى الأَرضِ مَا جَرَى لِدَمْعِىَ مِنَ طُولِ البِعادِ وطَوَّلاَ

* * *

٢ — التكرار : ونعنى به ترديد المعانى بألفاظها أو قريب منها ، فى أكثر من مناسبة وبزيادة أحياناً أو نقص . ومن ذلك قوله :

---

(١) كتاب « المحجة فى سرقات ابن حجة » منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . ونقع فى نحو ٢٢٥ صفحة من القطع الكبير .

فَمَنْ رَأَى مِنْهُمْ برقاً يَلُوحُ لَهُ   يَظُنُّهُ سَيْفَهُ المَاضِى قدِ اشْتَهَرا

وقوله :

وإذا انْتَضيْتَ السَّيفَ يبْرقُ بارقٌ   وإذَا أَفَضْتَ الجُودَ يُخْضِبُ حَاجِرُ

وكذلك قوله :

إنْ كَانَ قَد نَظَمَ الأَعْدا مكيدتَهُمُ   فقُلْ لَهُمْ إنَّهُ مِنْ قَبْلِهِمْ شَعَرَا

وقوله :

فَرَجٌ عَلَى اللَّجُونِ نظَّمَ عَسْكَرًا   وأَطَاعَهُ فى النَّظْمِ بَحْرٌ وَافِــرُ

فأَبَنْتَ مِنْهُ زِحَافهُ فِى وَقْفَةٍ   يَا مَنْ بِأَحْوَالِ البَرِيَّةِ شَاعِرُ

* * *

٣ ــ الأخطاء اللغوية . ونعنى بها خروجه عن متن الفصيحة أو قواعدها . وهو قليل فى شعره بالقياس إلى شعراء عصره . ومنه قوله فى إحدى الروايات :

هَوَاىَ بِسَفْحِ القَاسِمِيَّةِ والجَسر   إذَا هَبَّ تَدْرُوا أَنَّ هَذَا الهَوَى عُذْرِى

فجزم « تدروا » فى جواب شرط إذا ، وهى غير جازمة . ومنه قوله :

وجميعُ هَاتِيك الطغَاةِ بأَسْرِهِمْ   دَارَتْ عَلَيْهِمْ من سُطَاكَ دَوَائِرُ

فاستخدم لفظ « سطاك » بمعنى سطوتك ، وليست فى اللغة . وقد شاع استعمالها بهذا المعنى فى عصره وقبله .

ومنه قوله :

أَذْكَرْتَنَــا لِعَلِىٍّ فى وَقَائِعِهِ   وفِى الفُتُوحَاتِ قد أَذْكَرْتَنَا عُمَرَا

فعدّى « أذكر » بحرف الجر ، مع أنه ينصب مفعولين .

* * *

وبعد فهذه عجالة فى حياة ابن حجة الحموى وفى أدبه . نعتقد أنها الأولى فى بابها . ونرجو أن تكون فاتحة لدراسة مفصلة تفصح عن نواحى هذا الأديبِ الكبير ، بعد أن عانت كثيراً من الخفاء .



الفصل الرابع

منتخبات من آثار تقي الدين بن حجة الحموي

(ا) من مختاراته النثريه

بين كافور الإخشيدى وابن جابار[1]

قال ابن حجة :

كَانَ أَبُو بَكرٍ المَحلِّيُّ يَتَوَلَّى نَفقَاتِ أَبِى المِسْكِ كَافُورٍ الإِخشيدى ، وكانَ لهُ فى كُلِّ عِيدِ أَضْحَى عَادَةٌ ، وَهْىَ أَنْ يُسَلِّمَ إلىَ أَبِي بَكرٍ المَذْكُورِ يَغْلاً مُحَمَّلاً ذَهَباً وَجَرِيدَةً تَتَضَمَّنُ أَسماءَ قَوْم مِنْ حَدِّ القَرَافَةِ إلىَ الْجَبَّانَةِ وَمَا بينَهمَا .

قالَ أَبُو بَكْرٍ المَذْكورُ : وَكَانَ يَمْشِى مَعِى صَاحِبُ الشُّرطةِ ونَقِيبٌ يَعْرِفُ المنازِلَ ، وأَطُوفُ مِنْ بَعْدِ العِشَاء الأَخيرةِ إلى آخِرِ اللَّيْلِ حتى أُسَلِّمَ ذَلِكَ إلَى مَنْ تضَمَّنَتِ اسْمَهُ الجَرِيدةُ . فأَطْرُقُ منْزِلَ كُلِّ إنْسَانٍ مَا بيْنَ رَجُلٍ وَامْرأَةٍ ، وأَقُولُ : « الأَستَاذ أَبُو المِسْكِ كَافُورٌ الإخشيدى يُهَنِّئُكَ بالعيدِ ، ويقولُ لك : اصرفْ هذا فى مَنْفَعتك » . فأَدْفعُ إليه ما جُعِلَ لهُ .

وفى آخِرِ وَقْتٍ ، زَادَ فى الجَرِيدةِ الشيخَ أَبَا عبدِ اللهِ بنَ جَابَار ، وجَعَل لَهُ فِى ذلِكَ العِيد مائةَ دينارٍ . فطفتُ فى تلكَ اللَّيْلَةِ وأَنفَقْتُ المَالَ فِى أَرْبَابِهِ ولَمْ يَبْقَ إلاَّ الصُّرَّةُ . فَجَعَلتُهَا فِى كُمِّى ، وَسِرْتُ مَعَ النَّقِيبِ حتَّى أَتيْنَا مَنْزِلَهُ بِظَاهِرِ القَرَافَةِ . فَطَرَقْتُ البَابَ . فنزلَ إلينا الشَّيْخُ

---

(١) من كتاب « ثمرات الأوراق » ص ٦٣



وعَلَيهِ أَثرُ السَّهر. فسَلَّمْتُ عليهِ ، فلَمْ يرُدَّ عَلَىَّ . وقال : مَا حَاجَتُكَ » ؟ قلتُ : «الأُستاذ أَبُو المِسْكِ كافورٌ يخُصُّ الشيخَ بالسلام » فقَالَ : « والِى بَلَدِنَا » ؟ قلتُ : « نَعَمْ » قالَ : « حَفِظَه اللهُ . اللهُ يَعْلَمُ أَنِّى أَدْعُو لهُ فى الخَلَوَاتِ وأَدبارِ الصَّلَوَاتِ بِمَا اللهُ سَامِعُهُ ومُسْتَجِيبُهُ . » قلْتُ : « وقَدْ أَنْفَذَ مَعى نَفَقَةً ، وهْىَ هَذِهِ الصرَّةُ . ويسأَلُكَ قبولَها لتُصْرَفَ فى مَئُونَةِ هَذَا العِيدِ المُبَارَكِ » . فقَالَ : « نَحْنُ رَعِيَّتُهُ ونُحِبُّهُ فِى اللهِ تَعَالَى . وَمَا نُفْسِدُ هَذِهِ المَحَبَّةَ بعلَّةٍ » . فَرَاجَعْتُهُ القَوْل ، فتَبَيَّنَ الضَّجَرُ فِى وجْهِهِ والقَلَقُ ، واسْتحْيَيْتُ مِن اللهِ أَن أَقْطَعَهُ عمَّا هُوَ عَلَيْهِ . فتَركْتُهُ وانْصَرَفْت .

قَالَ : فَجِئْت فوَجدْتُ الأَميرَ قَدْ تَهَيَّأَ للرُّكُوبِ ، وَهْوَ يَنْتَظِرُنى . فَلَمَّا رَآنِى قَالَ : « إِيهِ يا أَبَا بَكْرٍ » . قُلْتُ : « أَرجُو اللهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ فيكَ كُلَّ دعْوَةٍ صَالِحَةٍ دُعِيَتْ لَكَ فِى هَذِهِ الليْلةِ وَفِى هَذَا الْيَوْم الشريفِ » فقَالَ : « الحمدُ للهِ الذِى جَعَلَنى لإِيصَالِ الرَّاحَةِ إِلَى عِبَادِهِ . » ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِامْتِنَاعِ ابنِ جَابَارٍ فقَالَ : « نَعمْ هُوَ جَدِيرٌ ، لَمْ تَجْرِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مُعامَلَةٌ قبلَ اليوم . » . ثُمَ قَالَ لِى : عُدْ إِليهِ واركبْ دابَّةً مِنْ دَوَابِّ النَوْبَةِ واطْرُقْ بَابَهُ . فإِذا نَزَلَ إِليكَ فإِنَّهُ سَيقُولُ لَكَ : أَلَمْ تَكُنْ عِنْدَنَا ؟ فَلاَ ترُدَّ عليه جَوَاباً . ثم استَفْتِحْ واقْرَأْ : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآن لِتَشْقَى . إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى . تَنزِيلاً ممَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسمَّوَاتِ العُلَى . الرَّحمٰنُ عَلَى العَرْش اسْتَوَى . لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَما فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى » . يَا ابْنَ



جَابَارٍ : الأُسْتَاذُ كافُورٌ يقولُ لَكَ : ومَنْ كَافُورٌ العَبْدُ الأَسْوَدُ وَمَنْ هُوَ مَوْلَاهُ ومَنِ الخَلْقُ . لَيْسَ لِأَحَدٍ مَعَ اللهِ مُلْكٌ وَلَا شَرِكَةٌ . تَلاشَى النَاسُ كُلُّهُمْ هَهُنَا . أَتَدْرِى مَنْ هُو مُعْطِيكَ وَعَلَى مَن رَدَدْتَ . أَنْتَ مَا سَأَلْتَ وإِنَّمَا هُوَ أَرْسَلَ إِليكَ . يَا ابْنَ جابَارٍ أَنْتَ مَا تُفَرّقُ بَيْنَ السَّبب والمُسَبِّب » .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : « فَرَكِبْتُ وسِرْتُ فَطَرَقْتُ مَنْزِلهُ فنَزَلَ إِلَيَّ . فقالَ لِى مثلَ لفظِ كافورٍ . فأَضربتُ عَنِ الجوابِ . وقرأَتُ عليهِ « طه » ... ثم قلتُ لَهُ ما قالَ لِى كافور . فبكَى ، وقال لِى « أَيْنَ مَا حَمَلْتَ » . فأَخرجْتُ الصُّرَّةَ فأَخَذَهَا ، وقَالَ عَلَّمَنَا الأُستاذُ كَيْفَ التَّصَوُّفُ . » . قلتُ له : أَحْسنَ اللهُ جَزَاءَكَ » . ثم عُدْتُ إليه فأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ ، فسر وَسجَدَ شكرًا لِلهِ تعَالَى ، وقَالَ : الحمدُ لله عَلَى ذَلِكَ . » .

* * *

ب ــ من مختاراته الشعرية

من باب الأغزال المحمسة

قال ابن حجة :

ذكر الأَصمعىُّ أَنَّ أَغربَ بيت نُظِمَ فى أَغْزَالِ العربِ ، قولُ جميلٍ :

خَلِيلَيَّ فيمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا   قتِيلاً بكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

ومِنْ هُنَا أَخَذَ الشيخُ جمالُ الدِّين بنُ نُبَاتَةَ وقال :

أَبْكِى اشْتِياقاً إِليهَا وَهْى قاتِلَتِى   يا مَنْ رَأَى قَاتلاً يَبْكِيه مَقْتُولُ

---

(١) راجع « تأهيل الغريب » .

ومن غريبِ الأغزالِ المحمسةِ قولُ عنترةَ :

ولَقدْ ذكرتُكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ مِنِّى وبِيضُ الهِندِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِى
فَوَددْتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأَنَّها لَمَعَتْ كَبارقِ ثَغْرِكِ المتَبَسِّمِ (١)

هذا النوع سماه علماء البديع الافتنان لاشتماله على فنى الغزل والحماسة كقول أَبى دلف :

أُحِبُّكِ يا ظَلومُ فَأَنْتِ مِنِّى مَكَان الرُّوحِ فى صَدْرِ الجَبَان
وَلوْ أنى أَقُولُ مَكانَ رُوحِى خَشِيتُ عَلَيْكِ بادِرَةَ الطِّعَانِ (٢)

وأَبدع منه وأَغرب قول الأَرَّجَانِى :

كَمْ طَعْنَةٍ نَجْلاَءَ تعرِضُ بِالحِمَى مِنْ دونِ نَظْرَةِ مُقْلَةٍ نَجْـلاَءِ
فتَحَدَّثَا سِرًّا فَحَوْلَ قِبَـابِهَا سُمْرُ الرِّمَاحِ يَمِلْنَ للإِصْغَاءِ (٣)

الذى يظهر أَن الصاحب فخر الدين بن مكانس من هنا ولد معنى شجرة السرح . وقال :

مَالَتْ عَلَى النَّهرِ إِذْ جَاشَ الخَريرُ بهِ كأَنَّها أُذُنٌ مَالَتْ لإِصْغَـاءِ

شيخ شيوخ فى حماة المحروسة :

ونحَنُ مَعَاشِرٌ نَأْبَى الـدنَايَا وَنَلْبَسُ مِنْ صِوَانِ العِرْضِ سَرْدَا
نُعَانِقُ مِنْ رِمَاحِ الخَطِّ بَاناً ونَنْشَقُ مِنْ سُيُوفِ الهِنْد وَرْدَا (٤)

---

(١) بيض الهند : السيوف الهندية . — والنواهل : الشاربة .

(٢) الطعنة المبادرة : المعاجلة السريعة . والظلوم : الظالمة .

(٣) قوله : شجرة السرح : يريد القصيدة الممتعة التى نظمها ابن مكانس فى وصف سرحة قائمة على النبل ، وأبدع فيها ما شاء ، وهى فى ديوانه .

(٤) الصوان : بفتح أوله أو ضمه ما يصان فيه الثوب . — والسرد : الدرع أو نسجها أو سائر حلقها . والخط : بفتح أوله أو كسره مرفأ السفن بالبحرين ، وإليه نسبت الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها .



وقال مهيار فى بيت واحد وأجاد :

وأَتْعَبُ مَنْ حَاوَلْتَ يا قَلْبُ وَصْلَهُ حبيبٌ سِنَانُ السَّمْهَرِيِّ رَقِيبُهُ (١)

وممن تفنن بين رقة الغزل وفخامة الحماسة إبراهيم بن محمد الأنصارى المنبوذ بطويجن . فمن ذلك قوله الذى أجاد فيه للغاية :

خَطَرَتْ كَمَيَّادِ القَنَا الْمُتَأَطِّر وَرَنَتْ بِأَلْحَاظِ الغَزَالِ الأَعْفَرِ
وَأَتَتْكَ بَيْنَ تَطَاعُنٍ وَتَذَاعُنٍ فى فَتْكِ قَسْوَرَةٍ وَعَطْفَةِ جُؤْذُرِ
وَبِمَلْعبِ الصُّدْغَيْنِ مِطْرَدُ وَجْنَةٍ زَحَفَتْ عليهِ كَتَائِبُ ابنِ المُنْذِرِ (٢)

ومثله فى الحسن قوله :

زَارَتْ وفِى كُلِّ مَرمىً لَحْظُ مُحتَرِصٍ وحَوْلَ كُلِّ كِنَاسٍ لَحْظُ مُحْتَرِسِ
وإن تَلاَ خَدُّهَا الزَّاهِى الضُّحَا نَطَقَتْ سُيُوفُ آبائِها عَنْ آيةِ الحَرَسِ (٣)

ابن الساعاتى وأجاد :

يُهوى قَوامُ الرُّمْح وهو مُهَفْهَفٌ والسيفُ فى وجَنَاتِه تَوْرِيدُ (٤)
فكأَنَّما سُمْرُ الرِّمَاحِ مَعَاطِفٌ والهامُ فوقَ صُدُورِهنَّ نُهُودُ

ويعجبنى هنا قول نصر الله بن قلاقس :

عَقَدُوا الشُّعُور مَعَاقدَ التِّيجانِ وتَقَلَّدُوا بِصَوارِمِ الأَجْفَانِ
ومَشَوْا وقَدْ هزُّوا رماحَ قُدُودِهِم هزَّ الكُمَاةِ عوالِى المُرَّانِ

---

(١) السمهرى : الرمح الصلب منسوب إلى سمهر زوج ردينة وكانا مثقفين للرماح .

(٢) ماد يميد : تحرك وتبختر — المتأطر : المتعطف المتثنى . — الأعفر : الظبى تعلو بياضه حمرة أو الأبيض ليس بالشديد البياض . — والقسورة : الأسد — والجؤذر : وتضم ذاله وتفتح ولد البقرة الوحشية — المطرد : وزن منبر المكان الواسع أو السطح المستوى الواسع .

(٣) المحترص : الحريص الحذر — والكناس بيت الظبى .

(٤) المهفهف : الضامر البطن الدقيق الخصر .

وَتدرَّعُوا زَرَدًا فخِلْتُ أَراقِماً ... خَلَعَتْ مَلاَبِسَها على الغِزْلاَنِ(١)

ومن لطائف المتأخرين فى هذا الباب ، أَعنى الغزل المحمس ، قول الوَدَاعى

لَقِيتْنِى بِصدْرِهَا فَتَوهمْـ ... ـتُ عِناقاً أَهدَى إلى اللِّقَاءُ

وعَدَانِى يا قومُ أَن العَوالِى ... عِند إِشْراعِها تُراق الدِّمَـاءُ(٢)

ومن بديع الفاضل وغريبه :

تَلْقَى عَروُسَ المنَايا وهى حاسرةٌ ... وخدُّها فيه من فَيض الدِّمَا خَفَرُ

والضربُ بالبيضِ من آثارِهِ عُكَنٌ ... والطعنُ بالسُّمْرِ من آثارِهِ سُرُرُ(٣)

ومثله قوله فى ضرب ممدوحه بالسيوف :

تَمُدُّ إلىَ الأَعداءِ مِنْهَا معَاصِماً ... فترجعُ من مَاءِ الكُلاَ بأَساوِرِ

ومثله قوله سقى الله ثراه :

وخُـدُودُ الأَرضِ مُشْرِقَـةٌ ... من دَمٍ والخَيْلُ خَيْـلاَنِ

ابن قلاقس وأَجاد :

وغزالٍ لَدْنِ المعَاطِفِ كالخُو ... طِ رقيقِ الخُدُود كالجِرْيَالِ

عسكرىٍّ يصولُ فى مَعْرَكِ الحُـ ... ـب بما فيه من سِلاَحِ الجَمال(٤)

---

(١) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع – والمران : الرماح الصلبة اللدنة واحدها مرانة . – والزرد : الدرع المزرودة أى المنسوجة . – والأراقم : جمع أرقم وهو أخبث الحيات . –

(٢) عدانى : فاتنى – والعوالى : جمع عالية وهى أعلى الرمح . وإشراعها : تسديدها .

(٣) الخفر : شدة الحياء – والبيض : السيوف – والعكن : جمع عكنة وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .– والسمر : الرماح – والسرر : جمع سرة وهى من البطن المكان الذى تقطع منه القابلة حبل السر .

(٤) الخوط : الغصن الناعم . – والجريال : الخمر



ومثله قول مجير الدين بن تميم :

بِرُوحِي مِنَ الأَتْرَاكِ ظَبْيٌ تَخَافُهُ   إِذَا مَاسَطَا أُسدُ الشَّرَى وتُحاذِرُهْ
فَمَا حِيلَتِي فِيمَنْ إِذَا رُمْت وَصْلَهُ   ثَنَى طَرْفَهُ نَحْوالحُسَام يُشَاوِرُهْ(١)

قلت : وهذا التضمين يعد من المرقص المطرب .

ومثله قول سبط التعاونذى :

بيْنَ السُّيُوفِ وعينيهِ مُشَاكَلَةٌ   مِنْ أَجْلِهَا قيل لِلأَغْمَادِ أَجْفَانُ

ومن ناضج ابن قلاقس هنا قوله :

ثَقَّفُوهَا من القُدُودِ رِماحاً   وانْتَضَوْها مِنَ الجُفُونِ صِفاحَا
يالها حالةً من السِّلْم حالَتْ   فاسْتَحالَتْ مِنْ بعدِ ذاكَ كِفَاحَا
صَحَّ إِذْ رُدَّتِ العُيونُ دِمَاءً   أَنَّهمُ أَثْخَنُوا القلوبَ جِرَاحَا

وما أحلى ما قال بعده :

يا فُؤَادِي وقد أُخِذْتَ أَسيرًا   أَتَقَطَّرْتَ أَمْ وَضَعْتَ السِّلاَحا(٢)

ومن مدائحه فى الملك المعظم قوله :

ولَقَدْ أَشَمْتَ الثغرَ مِنْكَ مُهَنَّدًا   خِلْنَاهُ ذَاكَ العَضْبَ رُدَّ لِغِمْدِهِ(٣)
فكأَن ثغْرَك أُقْحُوَانَةُ ثَغْرِهِ   وكأَن بأْسَكَ جُلَّنَارَةُ خَدِّهِ

صفوان المريسى وأجاد :

يَرَى اعْتِنَاقَ العَوَالِي فى الوَغَى غَزَلاً   لِأَنَّ خرصانها مِنْ فَوْقِهَا مُقَلُ(٤)

---

(١) الشرى : مأسدة .

(٢) تقطر : رمى بنفسه من علو

(٣) شام مهندة : غمد سيفه — الأقحوانة : نبت طيب الرائحة والمنظر . والجلنارة . زهرة الرمان وهو معرب .

(٤) الوغى : ضجة القتال — والعوالى : أطراف الرماح العليا .

وقلت من قصيدتى التى كتبت بها جوابًا عن صاحب تونس إلىٰ صاحب الأندلس :

وسال عِذارُ السَّيْفِ فوق خُدُودِهم ... فأظْهرَ بعدَ الشَّيْبِ خدًّا مُوَرَّدا
وكم زَرَدٍ قَدْ فُكَّ فوقَ مَسيلِهِ ... إلى أنْ رأيْناهُ عِذاراً مُزَرَّدا[1]

* * *

(حـ) من نقده

من باب براعة الاستهلال[2]

قال ابن حجة :

« اعلم أنه اتفق علماء البديع على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعانى واضحة فى استهلالها . وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة . وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصًا عند السماع . وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن . ومطلعها ، مع تجنب الحشو ليس له تعلق بما بعده . وشرطوا أن يجتهد الناظم فى تناسب قسميه ، بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيًّا من شطره الثانى .

وقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال حسن الابتداء . وفى هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع . وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشىء من حسن الابتداء . وأورد فى هذا الباب قول النابغة :

كِلِينِى لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيهِ بَطِىء الكواكبِ

قال زكى الدين بن أبى الأصبع : لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار . فإنى أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرئ

---

(١) عذار السيف : جانبه وصفحته . — والزرد : الدرع المنسوجة .

(٢) راجع « خزانة الأدب » .



القيس ، حيث قال :

قِفا نَبكِ من ذكْرَى حبيبٍ ومنْزِلِ ... بسقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

فرأى ابتداءَ امرى القيس على تقدمه وكثرة معانيه ، متفاوت القسمين جدًّا ، لأَن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعانى . وليس فى الشطر الثانى شىءٌ من ذلك . وعلى هذا التقدير ، مطلع النابغة أَفضل، من جهة ملاءَمة أَلفاظه وتناسب قسميه . وإن كان مطلع امرئ القيس أَكثر معانى . وما عظم ابتداءَ امرئ القيس فى النفوس إلا الاقتصار على سماع صدر البيت . فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل فى شطر بيت . وإذا تأَمّل الناقد البيت بكماله ظهر له تفاوت القسمين .

وقال – أَعنى ابن أَبى الأَصبع – إذا وصلت إلى قول البحترى من هذا الباب وصلت إلى غاية لا تدرك . وهو قوله :

بِوُدِّى لَوْ يَهْوى العَذُولُ ويَعْشَقُ ... لِيَعْلَمَ أَسْبَابَ الهَوَى كَيْفَ تَعْلَقُ

انتهى كلام زكى الدين بن أَبى الإصبع .

ولقد أَحسن أَبو الطيب المتنبي حيث قال :

أَتَـرَاهـا لِكَثْرَةِ العُشَّاقِ ... تَحْسَبُ الدَّمْع خِلْقةً فِى المَآقى

ومثله قوله – أَى قول حبيب[٢] :

حُشاشَةُ نفسٍ وَدعَتْ يومَ وَدَّعُوا ... فَلَمْ أَدْرِ أَىَّ الظَّاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ[١]

وما أَلطف قول أَبى تمام فى هذا الباب :

---

(١) الظاعن : الراحل المسافر – والحشاشة بقية الروح فى المريض والجريح .

(٢) هكذا فى خزانة الأدب . نسب البيت إلى حبيب ، وهو أبو تمام . ولكن البيت من شعر المتنبى .

لا أَنتِ أَنتِ ولا الديارُ دِيَارُ خَفَّ الهَوَى وتَقَضَّتِ الأَوْطَارُ (١)

ومثله قول أَبى العلاء المعرى :

يا سَاهِرَ البَرْقِ أَيقِظْ رَاقِدَ السَّمْرِ لَعَلَّ بالجِزْعِ أَعواناً عَلَى السَّهرِ (٢)

وقد خلب القلوب ابن المعتز فى تناسب القسمين بقوله :

أَخَذَتْ مِنْ شَبابِىَ الأَيَّـامُ وتَـوَلَّى الصِّبَا عَليهِ السَّلاَمُ

وما أَحلى ما ناسب ابن هانى قسمى مطلَعه بالاستعارات الفائقة حيث قال :

بَسَمَ الصَّبَاحُ لِأَعْيُنِ النُّـدَمَـاءِ وانْشَقَّ جَيْبُ غِـلاَلَةِ الظَّلْمَاءِ (٣)

وقال الشريف أَبو جعفر البياضى يشير إِلى الرفق بالإِبل عند السرى . وتلطف ما شاءَ فى تناسب القسمين ، حيث قال :

رِفْقاً بِهِن فَمَا خلِقْنَ حَدِيدَا أَوَمَا تَرَاهَا أَعْظُماً وجُلُودا

وهذه القصيدة طريقها الغريب لم يسلكها غيره ، فإِنه نسجها جميعاً على هذا المنوال . ومنها :

يَفْلِينَ نَاصِيَةَ الفَلاَ بِمَنَاسِمٍ وَسَمَ الوَجَا بِدمَائِهِنَّ البِيدَا
فكأَنَّهُنَ نَثَرْنَ دُرًّا بالخُطَـاَ ونَظَمْنَ مِنْهُ بِسَيْرِهِنَّ عُقُـودَا (٤)

ومما يعذب فى الذوق من هذا الباب قول ابن قاضى ميلة .

يَزِيدُ الهَوَى دَمْعِى وقَلْبِى المُعَنَّفُ ويُحْيِى جُفُونِى الوَجْدُ وهو المُكَلَّفُ

---

(١) الأوطار : جمع وطر وهو الحاجة والأمنية .

(٢) السمر : شجر .

(٣) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب .

(٤) يفلين ناصيتها : يبحثن فى منابت شعرها . — والمناسم جمع منسم على وزن مجلس ، خف البعير . — الفلا : جمع فلاة وهى القفر — الوجا : الحفا .



وقد نبه مشايخ البديع على يقظة الناظم فى حسن الابتداء . فإنه أول شىء يقرع الأسماع ، ويتعين على ناظمه النظر فى أحوال المخاطبين والمدوحين ، ويتفقد ما يكرهون سماعه ويتطيرون منه ، ليتجنب ذكره ويختار لأوقات المدح ما يناسبها . وخطاب الملوك فى حسن الابتداء هو العمدة فى حسن الأدب . فقد حكى أن أبا النجم الشاعر دخل على هشام بن عبد المَلِكِ فى مجلسه ، فأنشده من نظمه :

صفراء قد كَادَتْ ولَمَّا تَفْعَلِ   كأَنَّهَا فِى الأُفْقِ عَيْنُ الأَحْوَلِ

وهشام بن عبد الملك أَحول . فأَخرجه وأمر بحبسه .

وكذلك اتفق لجرير مع أَبيه عبد الملك . فإنه دخل عليه وقد مدحه بقصيدة حائية أولها :

أَتَصْحُو أَمْ فؤادُك غيرُ صَاحِ

فقال له عبد الملك : بل فؤادك يا ابن الفاعلة :

ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أَبى الطيب المتنبى خطابه لمدوحه فى مطلع قصيدة حيث قال :

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموْتَ شَافِيًا   وحسْبُ المَنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانِيَا

ومن مستقبحات الابتداء قول البحترى ، وقد أَنشد يوسف بن محمد قصيدته التى أَولها :

لَكَ الوَيْلُ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ آخِرُهْ

فقال : بل لك الويل والخزى .

وأَما قصة إسحق بن إبراهيم الموصلى فى هذا الباب ، فإنى أَنفعل وأَخجل عند سماعها . وما ذاك إلا أَنه دخل على المعتصم ، وقد فرغ من

بناء قصره بالميدان . فشرع فى إنشاد قصيدة نزل بمطلعها إلى الحضيض . وكان هو وحكاية الحال فى طرفى نقيض . وهو :

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلى ومَحَــاكِ   يا ليتَ شِعرِى مَا الَّذِى أَبْلَاكِ

فتطير المعتصم من قبح هذا المطلع ، وأمر بهدم القصر على الفور . فنعوذ بالله من آفة الغفلة . هذا مع يقظة إسحق وسير الركبان بحسن محاضرته ومنادمته للخلفاء . ولكنه قد يخبو الزناد وقد يكبو الجواد . مع أنه قيل إن أحسن ابتداء ابتدأ به مُولَّد ، قول إسحق الموصلى حيث قال :

هَلْ إلَى أَن تنامَ عَيْنِى سَبيلُ   إنَّ عَهدِى بالنَّوْم عَهْدٌ طَويلُ

فانظر إلى هذا الأديب الحاذق المتيقظ. كيف استطردت به خيول السهو ، إلى أن خاطب المعتصمَ فى قصر رياحين تشييده غضة ، بخطاب الأطلال البالية ... إلخ

د ــ من نثره الفنى

١ ــ الرسالة البحرية

كتب ابن حجة إلى صديقه علامة عصره الشيخ بدر الدين الدماميني عام ٨٠٢ هـ من القاهرة إلى الإسكندرية ، عند دخوله إلى القاهرة فاراً من أهوال الحرب بثغر طرابلس ، رسالة إخوانية سماها « الرسالة البحرية » وفيها يصف مالاقاه من الأهوال فى البحر قال :

«يُقبِّلُ الأَرضَ التى سُقى دَوْحُها[1] بنزولِ الغَيْثِ فأَثْمَرَ الفَواكِهَ البَدْرِيَّةَ . وطَلَعَ بدرُ كَمالِهَا مِن المَغْرِبِ فسَلَّمْنا لِمُعْجزاتِها المُحَمَّدِيَّةِ .

(١) الدوح : جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة .

وجَرَى لِسَانُ البَلَاغَةِ فى ثَغْرها فَسما عَلَى العِقْدِ بِنَظْمِهِ المُسْتَجَادِ . وأَنْشَدَ ـ وقَدْ ابْتَسَمَ عَنْ مَحَاسِنِهِ الَّتِى لَمْ يُخلَق مثْلُهَا فى البلاد .

لَقَدْ حَسُنَتْ بِكَ الأَيَّامُ حَتَّى ... كَأَنَّكَ فى فَمِ الدَّهْرِ ابْتِسامُ

فأَكْرِمْ بهِ مَوْرِد فَضْلٍ مَا بَرح منْهَلُهُ العَذْبُ كَثِيرَ الزِّحَام . ومدينَةَ عِلْمٍ تَشَرَّفَتْ بالجنَابِ المُحَمَّدِىِّ فَعَلَى ساكِنِهَا السَّلاَمُ . ومَجْلِسَ حُكْمٍ مَا ثَبتَ لِلْبَاطِل به حُجةٌ . وعَرفاتِ أَدبٍ إِنْ وَقفْتُ بِهَا وقفةً كنتُ على الحقيقة ابنَ حِجَّة . وأُفُقَ مَعالٍ بَالَغ فى سُمُوِّ بَدْرِهِ فلمْ يَقنَعْ بِدونِ النُّجُومِ . وميدان عرْشِه تجُول به فِرْسانِ الفَصَاحة من بَنِى مَخْزُوم . وتَاللهِ مَا لِفِرْسَانِ الشَّقْرَاءِ والأَبْلَقِ فى هَذَا المَيْدانِ مَجَال . وإذا اعْتَرفُوا بما حَصَلَ لِلْفارِسِ المخْزُومى عِنْدَهمْ من الفتح ، كَفَى اللهُ المؤْمنين القِتَال .

ويُنْهِى ، بَعْدَ أَدْعيةٍ ما بَرِح المملوكُ منْتَصِباً لِرفْعِهَا. وتغريداثنية[1] ما لِسَجْع المُطَوَّقِ[2] فى الأَوْرَاقِ النَّبَاتِيَّةِ حَلاوةُ سَجْعِها . وأَشواقٍ بَرَّحَتْ بالمملوكِ ولَكِنْ تَمَسَّكَ فى مِصْرَ بالآثَارِ .

وأَبرحُ ما يكونُ الشَّوْقُ يَوْماً ... إِذَا دَنَتِ الديَارُ مِنَ الدِّيَارِ

وصولَ المملوكِ إلى مصرَ مُحتَمِياً بكِنَانَتِهَا ، وهْوَ بِسِهَام العَيْنِ مُصَابٌ. ذُعُورًا لِمَا شَاهَدَهُ مِنَ المَصَارِعِ عِنْدَ مُقابَلَةِ الفرسانِ فى منازلِ الأَحبابِ ، مُكَلَّمَا[3] من ثغرِ طَرَابُلُس الشَّام بأَلْسِنَةِ الرِّمَاحِ ، محمولاً علىجَنَابِ غرَاب ، وقد حكَمَ عليه البينُ أَن لا يَبرحَ من سفرِه عَلَى جَنَاحٍ .

---

(١) هنا كلمة غير واضحة بالأصل .

(٢) المطوق : الحمام فى عنقه طوق من ريشه .

(٣) مكلما : مجرحاً .

وكانَ فى البينِ مَا كَفَانِى فكيفَ بالبينِ والغُرَابِ

يامَولاَنا ! لَقَدْ قُرعتْ سِنُّ هَذَا الثَّغْرِ بأَصابع السِّهَام . وقُلِعَ منه ضِرسُ الأَمْنِ ولم يَبْقَ له بعدما سَعَرَ به البينُ نِظَامٌ . وكشَّرَتِ الحربُ بين ثناياهُ عنْ أَنياب . واقْتَلِعْنَا مِنْهُ مَعَ أَنهم لم يترُكُوا لنَا فِيه ثَنيَّةً(١) ولاناب . وأَمْسَتْ شُهبُ الرِّمَاحِ قَافِيَةً على آثَارِنَا(٢) ، والسَّابِقُ السَّابقُ منا الجَوادُ. ولَزِمَتِ الرَّوِىَّ مِنْ دِمَائِنا لئَلاَّ يَظْهَرَ لِقَافِيتها عند نَظْمِ الحَرْبِ سِنَادٌ . وفَسَدَ انسجامُ تلكَ الأَبياتِ المنظومةِ على ذَلِكَ البَحْرِ المدِيدِ . وبُدِّلَتْ جَنَّتُهَا بنارِ الحرْبِ التى كَمْ نقولُ لَهَا : هَل امْتَلأْتِ وتقول هَلْ مِنْ مَزِيدٍ . ونَفَذَ حكمُ القضاءِ وكمْ جَرَّحَ خصمُ السيفِ فى ذلِكَ اليومِ شهُودَا واتَّصَلَ الحُكْمُ بقضاءِ القُضَاةِ فلمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ إلا مَنْ كَان مَسْعُودًا . ووَقَع غالِبُنَا فى القَبْضِ مِنْ عَرُوضِ حَرْبِهِمْ الطَّوِيل . وتبدَّلَتْ محاسن طَرَابُلُسِ الشَّام بالوَحْشَةِ فلَمْ نُفَارِقهَا على وجهِ جَميلٍ . وتاللهِ لم يدْخُلْهَا المملوكُ فِى هذه الواقِعَةِ إلا مُكْرَهاً لاَ بَطَلٍ . وكم قَلتُ لِسَابِيَةِ العَزْمِ لما كُشفَ لى عن مَضيقِ سَهْلِهَا : يا ساريةُ الجبلَ . ولم يُطَلِّقِ المملوكُ عروسَ حمَاتِهِ إلا جَبْراً أَظْهَروا به كَسْرَهُ . والعلومُ الكريمَةُ محيطةٌ كيف يكون طَلاَقُ المكْرَهِ .

(وهنا قصيدته الطائية التى أولها : بوادى حماة الشام من أيمن الشط – ثم قال بعدها ما يلى :

يا مَولاَنَا ! وأَبُثُّك مَا لِقيتُ من أَهوالِ هذَا البحرِ ، وأُحَدِّثُ عنه

---

(١) هكذا بدون ألف لضرورة السجع . والثنية : الناقة الطاعنة فى السادسة ، والناب : الناقة المسنة .

(٢) قافية على آثارنا : تتبعنا . – والكاتب فى العبارات التالية يورى بمصطلحات علم العروض ، ثم بمصطلحات القضاء ، ويسمى هذا توجيهاً .

ولا حَرَجَ . فَكَمْ وَقعَ المملوكُ من أَعَارِيضِهِ فى زِحَافٍ تَقَطَّعَ منهُ القَلْبُ لَمَّا دَخَلَ إلى دَوَائِرِ اللُّجَجِ . وشَاهَدْتُ منهُ سُلْطَاناً جَائِرًا يأْخُذُ كلَّ سفينةٍ غصباً . ونظرْت إلى الجَوَارِى(١) الحِسَانِ وقَدْ رَمَتْ أُزْرَ(٢) قُلُوعِهَا وَهى بين يَدَيْهِ لقِلَّةِ رجَالِهَا تُسْبَى(٣) . فتَحقَّقْتُ أَنَّ رَأَى مَنْ جاءَ يَسْعَى فى الفُلْكِ جَالِساً غيرُ صَائِبٍ . واسْتَصْوَبْتُ هُنَا رَأْىَ مَنْ جاءَ يَمْشِى وهو راكِبٌ . وزادَ الظمأُ بالمملوكِ وقد اتَّخَذَ بالبحر سَبِيلَهُ . وكمْ قُلْتُ من شدَّةِ الظَّمإِ يا تُرى قَبْلَ الحُفْرَةِ هَلْ أَطْوِى مِنَ البَحْرِ هَذِهِ الشقَّة الطَّويلَة :

وهَلْ أُبَاكِرُ بَحْرَ النِّيلِ مُنْشَرِحاً وأَشْرَبُ الحُلْوَ مِنْ أَكْوَابِ مَلاحِ

بحرٌ تلاطَمَتْ علينَا أَمواجُه حين مُتْنا مِن الخَوْفِ ، وحُمِلْنَا عَلَى نَعْش الغُرَاب . وقَامَتْ وَاوَاتُ دَوَائِرِهِ مَقَامَ معَ ، فَنَصَبَتْنا للغرَقِ لمَّا استَوتِ المياهُ والأَخْشَابُ . وفَارَقَ العبْدَ فيه(٤) سوْدَاءُ اسْتَرَقَّتْ مَوَالِيَنَا وهى جَاريةٌ . وغَشِيَهُمْ مِنْهَا مَا غَشِيَهُمْ فَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ . واقعَهَا الحرْبُ فَحَمَلَتْ بِنَا وَدَخلَهَا الماءُ فَجَاءَهَا المَخَاضُ ، وانشقَّ قلبُهَا لفَقْدِ رِجَالِهَا وجَرَى مَا جَرَى عَلَى ذَلِكَ القَلْبِ وفَاضَ . وتَوَشَّحَتْ بالسَّوَادِ فى هَذَا المَأْتَمِ وسَارَت عَلَى البحْرِ وهى مَثَل . وكمْ سُمِعَ للمغاربة عَلَى ذَلِكَ التَّوشيح زَجَل . بُرْجٌ مَائِىٌّ ولكِنْ تُعربُ فى رَفْعِهَا وخَفْضِهَا عَنِ النَّسْرِ والحُوتِ . وتَتَشَامخُ كالجبالِ وهى خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ مَنْ تَبطَّنَهَا عُدَّ من

---

(١) الجوارى الحسان : يريد السفن الجارية .

(٢) الأزر : بضم أول معقد الإزار وا لإزار ما يلتحف به . أو بضمتين جمع إزار .

(٣) وتسبى : تؤسر وتؤخذ أسيرة .

(٤) السوداء : يريد إحدى السفن .

المُتَصَبِّرِين فى تَابُوتٍ . تأْتِى بالطبَاقِ ولكن بالمَقلوب لأَنَّ صَغِيرَها كبير وبَيَاضها سَوَاد . وتَمشِي عَلَى الماءِ وتطيرُ مَعَ الهواءِ وصلاحُها عينُ الفَسَادِ. إنْ نَقَّرَ المَوْجُ على دُفُوفهَا لعِبَتْ أَناملُ قُلُوعِهَا بالعُودِ . وترَقِّصُنا على آلتِها الحَدْباءِ فتَقُومُ قِيَامَتُنَا مِنْ هَذَا الرَّقْصِ الخارِجِ ونحنُ قُعود . تتَشَامَمُ وهىَ كما قِيلَ : أَنْفٌ فى السماءِ واسْتٌ فى الماءِ . وكمْ نُطِيلُ الشكْوى إلى قامَةِ صاريهَا عند المَيْلِ وهْى الصَّعْدَةُ الصَّمَّاءُ(١) . فِيها الهُدَى وليسَ لها عقلٌ ولادين . وتَتَصَابَى إذا هَبتِ الصَّبَا وهى بنتُ مائة وثمانين . وتُوقِفُ أَحوالُ القَوْمِ وهى تَجْرِى بِهم فى مَوْجٍ كالجبَالِ . وتَدَّعِى بَرَاءَةَ الذِّمَّةِ وكمْ استَغْرَقَتْ لَهُمْ من أَمْوَالٍ . هَذَا وكمْ ضَعُفَ نحيلُ خَصْرِهَا عن تَثاقُلِ أَرْدَافِ الأَمْواجِ . وكمْ وَجِلَتْ القلوبُ لمَّا صَارَ لِأَهداب مَجَادِيفها فى مُقْلَةِ البحرِ اخْتِلاَج . وكمْ أَسْبلَتْ عَلَى وَجْنتِهِ طُرَّة قِلْعِهَا فَبالَغَ الريحُ فى تَشْوِيشهَا . وكم مَرَّ عَلَى قَرْيَتِهَا العَامِرَةِ فتَرَكَهَا وهى خاويةٌ على عُرُوشِها . تتعَاظَمُ فتُهْزَلُ إلى أن تُرَى ضُلُوعُها من السَّقَم تُعَدُّ . ولقد رأَيْنَاها بعد ذلِكَ قَد تبَّتْ وهى حَمَّالَةُ الحطبِ فى جِيدِها حبلٌ مِنْ مسدٍ(٢) .

وخَلَص المملوكُ مِنْ كَدَرِ المَالِحِ إلى النِّيل المُبَارَكِ فَوَجَدَهُ من أَهْلِ الصَّفَا وإخْوانِ الوَفَا ، وتَنَصَّلَ منْ ذلكَ العَدَوِّ الأَزرقِ الذى ما بَرِحَ باطِنُه وهو كدِرٌ . وجَمَعَ من عُذُوبَةِ النيل ونَضَارَةِ شُطُوطِهِ بين عَيْنِ الحياةِ والخُضَرِ ، وتَلاَ لِسَانُ الحَالِ على المملوكِ وأَصحابِه : ادخلوا مصرَ إنْ شَاءَ اللهُ آمنين . وقُضِىَ الأَمرُ وقيل بعدًا للقوم الظَّالِمِينَ .

---

(١) الصعدة الصماء : القناة المستوية الصلبة المصمتة .

(٢) المسد : الليف .

وبعدُ : فإنَّ المملوكَ يسأَلُ الإِقالَة من عَثَراتِ هذِهِ الرسالةِ . فقد عَلِمَ اللهُ أَنَّها صَدرَت من فكْر تَركَهُ البينُ مُشَتَّتاً . والإغضاءَ عَنْ كثرةِ بَرْدِها فقد خرجتْ من البَحْرِ عارية في أيام الشِّتَا . ولْتُسْتَرْ عَوْرَاتُها بسَتَائرِ الحِلْمِ ويُنظَرْ إليها من الرحمة بعيْن . وليكنْ ضربهُا بِسَيْفِ النَّقْدِ صَفْحاً فَقد كَفَى ما جُرِّحتْ بِسيُوف العَيْن . وتالله لم يسلُكِ المملوكُ هذه الجادَّةَ إلا لِيجدَ لَهُ سبيلا إلى نَهْلَةٍ من عَذْبِ تِلْكَ المَوَارِدِ . ويَعُودَ قلبَه الضعيفَ الذى قُطِعَتْ صِلَاتُه من صَفَاءِ هذَا المَشْرَبِ عَائِدٌ . ويصيرَ العَبْدُ مَسْعُودا إذا عُدَّ للأَبواب العالية من جُمْلَةِ الخُدَّامِ . ويَحْصُلَ لكَبِدِه الحَرَّى من ذلكَ النَّسِيم الغرْبِيِّ بَرْدٌ وسَلاَم . واللهُ تَعالَى يَمُن بِقُرْبِ المُثُول بَينَ يَدَيْهِ ليحصلَ للمملوكِ بعَد التَّخَلّصِ مِنَ البَيْنِ حسنُ الخِتَامِ . »

٢ – من الملك المؤيد إلى صاحب تونس (١)

كتب ابن حجة عن الملك المؤيد شيخ جواباً إلى صاحب تونس ، رداً على رسالته ، يذكر له قضيته مع الملك الناصر فرج قديماً وحديثاً ، ويصرح له فيه بما من الله به عليه من النصر والفتح المبين قال :

بسم اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

السلطانُ الأَعظَمُ المالك المَلِكُ المُؤَيَّدُ – إلى آخرِ الأَلقابِ (٢) عَلَى العَادَة – عبْدُ اللهِ وَولِيُّهُ ، خلدَ اللهُ مُلْكَهُ ، وأَيَّد بتَأْييدِهِ مَمَالِكَ الإسْلاَم . ولا زَالَتِ السُّطُورُ والطُّرُوسُ (٣) مُشْرِقَةً باسْمِهِ عَلَى مَمَرِّ الليَالِي والأَيَّام .

(١) هذه الرسالة مثبتة فى « قهوة الإنشاء »

(٢ ، ٤) هذه العبارة موجودة بالأصل . ولم تسجل فيه الألقاب .

(٣) الطروس : جمع طرس وهو الصحيفة .

نَخُصُّ الحَضْرَةَ السنِيَّةَ السَّرِيةَ ـ إلى آخرِ الألقابِ[١] ـ لاَ زَالَتْ سُيُوفُ عزائِمِه فى الجِهَادِ ماضية الغَرْبِ[٢] . ولا بَرِحَ جُودُهُ وإقْدَامُهُ مُتَطَابِقَيْنِ فى السِّلْمِ والحَرْبِ . بسلاَمٍ هُوَ لِنَارِ الشوْقِ بَرْدٌ وَسَلاَم . وسقَايَةِ وِدَادٍ مَا زمْزَمَ نسيمُ قَبُولِهَا إلا لِعَالِى ذَلِكَ المَقَام . وتحياتٍ تُطْلَقُ بِهَا عِنْدَ مُوَاظَبَةِ الخَمْسِ أَلسنةُ الأَقْلاَم . وثَنَاءٍ يُقَلِّدُ بِخَالِصَةِ عُقُودِهِ جيد الزَّمَانِ ، ويُنْسِى قَلاَئدَ العِقْيَان[٣] . ومَحَبَّةٍ يُقْمِرُ صِدْقُها فى ذَلِكَ الأُفُقِ الغَرْبِيِّ ويُشْمِسُ . وتُزيلُ وحْشَتَهُ مِنْ سَلاَ عَنْ غَيرِهَا فى الغَرْبِ وتُونُس .

أَمَا بعَد حمدِ اللهِ مُؤَيِّدِ مَن شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ . وناصرِ الحَقِّ الَّذِى يُؤْتِى المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ويَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ لِحِكمْتِهِ البَالِغَةِ وبلوغِ مُرَادِهِ . وقامِعِ كلِّ فِئَةٍ بَاغِيَةٍ لَمْ يَبْقَ لَهَا فَرَجٌ إذَا حَكَّمَ سيفَ انتقَامِه وأَمْضاهُ . وهو القائلُ : فقَاتِلُوا التى تبغى حتى تَفِىءَ إلَى أَمْرِ اللهِ . فإنَّه قد تَقَدَّمَ مُفَاوَضَةُ عِلْمِكُمْ الكريم أَنَّ فَرَجاً كانَ عَلَى المسلمينَ شِدَّة . وأَنَّه سَل سَيْفَ البغْيِ ، والزيادةُ فى الحَدِّ نَقْصٌ فى المحْدُود وما أَفْلَحَ من تَعَدَّى حَدَّه . وكم تَعَرَّضَ للحَرْبِ المحَمدِيِّ وَضَاقَ بِكَثْرَةِ البَيِّنَةِ لِلْفَضَاءِ . إلى أَنْ انْتَقَمَ مِنْهُ الحَكَمُ العَدْلُ وأَنْفَذَ فيه حُكْمَ القَضَاءِ . كَمْ حمَيْنَا شَامَهُ بِمَاضِى سُيُوفِنَا وكُلَّمَا غَضِبَ نُرَاضِى . وهوَ معَ ذَلِكَ لم يَحْفَظْ غَيْرَ تلقينِ العِنَادِ ونسيانِ المَاضِى . وكم اهْتَضَمَ جَانِبَ الشريعَةِ المُطهَّرَةِ بِثُبُوتٍ تَواتر . ونحنُ نَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ ونُخفِيه مُراعاةً لأَبيه الظَاهِرِ . ونقولُ لَعَلَّه يَصْحُو من سُكْرِ الشبيبة ونَجِدُ للصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ

---

(١) هذه العبارة موجودة بالأصل ولم تسجل فيه الألقاب . (٢) الغرب : الحد .

(٣) قلائد العقيان : عقود الذهب .



طَعْمًا مُرا . وهو لَمْ يرْجعْ عنْ إثْراعِ كَاسَاتِ الجهْلِ ولَمْ يزْدَدْ إلاَّ سُكْرًا . هذَا ومُقَلُ سُيُوفِنا قَرِيرةٌ فى أَجْفَانِها تتَنَاوَمُ عَنْ فِعَالِهِ . لَعَلَّهُ يُصابُ فى كِنانَةِ مصرَ بِسِهَامٍ مِن الأَدْعِيَةِ تُطْلَقُ عَنْ قِسِيِّ الرُّكُوعِ لِقِتَالِه . إلى أَن بَحَثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ (١) . وأُعْلِنَتْ بَشَائرُ الأَدْعِيَةِ المُسْتَجَابَةِ بِحَتْفِهِ . ومَشَى نَحْوَنَا بِعَسَاكِرَ طَلبُوا الرِّبْحَ بِكثرَتِهِمْ فكانُوا مِنْ صفقةِ الحرب من الخاسرينَ . وتَمَسَّكْنَا بقوله تَعالَى : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبتْ فِئَةً كَثِيرةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » . إِلَى أَنْ ابْتَسَمَ لَنَا ثغرُ النَّصْرِ الَّذِى مَا فَاتَهُ شنَبٌ بِثَنِيَّةِ اللَّجُونِ . وقَدْ خُسِفَتْ بدورُ تلكَ الطوَارِق فى سَمَاءِ النَّقْعِ إلى أَن عَادَ كُلُّ بَدْرٍ كَامِلٍ كالعُرْجُونِ . ونَحْنُ نكتبُ بالهِنْدِىِّ ونُعْجِمُ بالخَطِّىِّ ونُنْشِئُ سَجَعَاتِ ضَرْبٍ نَنْثُرُ بها الرؤُوسَ . ونقِيمُ سُوقَ الحربِ التى كلمَا سُعِّرَتْ أُرْخِصَت بِتَسْعيرِها النفُوسُ . إِلَى أَنْ كُسِر النَّاصِرُ وَوَقَعَ بعدَ بَسْطِ عَسَاكِرِهِ فى قَبْضَتِنَا الشَّرِيفَةِ . وَرَغِبْنَا قَبْلَ الدُّخُولِ إلى الدِّيَارِ المِصْرِيْةِ أَنْ تكُونَ رَسَائلُ المَلِكِ مُسفِرَةً فى الآفاقِ عمَّنْ هُوَ نِعْمَ الخَلَفُ والخَلِيفَةُ . فلَمَّا حَلَّ رِكَابُنا الشريفُ ونحنُ لِنِعَمِ اللهِ السَّابِغةِ مِن الشَّاكِرِينَ . وتَلا لِسَانُ الحَالِ بباب مِصْرِهَا : ادْخُلُوا مِصْرَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِين » . وتَحَصَّنَّا فى استقرارِنَا بالقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ بالسَّماءِ ذاتِ البُرُوج . وَصَفَا قَلْبُ النِّيلِ وبَالَغَ فى الوَفَاءِ ، وبَاهَى بَعْدَما شَابَ وَبَلَغَ الهَرمَ بِخُضْرةِ عَوَارِضِ المُرُوجِ . وماجَتْ بحَار الوافِدِينَ إلينَا مِنْ كُلِّ فجٍّ عَمِيقٍ . وصَارَ كُلٌّ مِنْهُمْ ماشِيًا عَلَى الطَّرِيقِ . وَرَعَيْنَا خواطِرَ

---

(١) الحتف : الموت — والظلف : قدم البقرة والشاة والظبى وشبهها . والتعبير كناية عن أنه جلب الموت لنفسه بسعيه .

الرعَايا بالعَدْل إلىَ أن صَيرْنَا لَهمْ فى أهْلِ الظُّلْم أمرًا ونَهْياً . وفى أكْنَافِ النِّيل سقْياً ورَعْياً . فجَنَحَ أئِمَّةُ الدِّينِ وعُلَمَاءُ المُسْلِمِينَ وأربابُ الحَلِّ والعَقْدِ إلىَ مُبَايَعَتِنا بالسلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ ، لِيَبْلُغَ كُلٌّ مِنْهُمْ فِى مَصالح الأُمةِ مرَامَه . وأعْلَنُوا فِى تَقلِيدِ إمَامَةِ الأُمَّةِ بالتكبيرِ والإقامةَ . وكَرَّرُوا السُّؤَّالَ فى ذلكَ وقالُوا هَذَا أمرٌ يأْبَى اللهُ إلا أنْ يُفْعَل . وأفْتَوْا أنَّ العُذْرَ عَنْ قبُولِ ذلكَ لَمْ يُقْبَلْ . وفَوَّضَ إلينا أميرُ المُؤْمِنينَ تفْوِيضاً قَرتْ به عَيْنُه وطَاب فى مَهْدِ الأَمْنِ مَنَامُهُ . وقالَ : هَذَا نَظْمٌ يظهرُ فى بيتنا الشريفِ بديعُه وانسجامُه .

فلَمَّا كَانَ مُسْتَهَلُّ شَعبانَ سنةَ خمسَ عشرةَ ، استَخَرْنَا الله تَعالَى ولَبِسْنَا شِعَار السَّلطنةِ الشَّريفةِ . وجلَسْنَا علىَ كُرْسِىِّ مُلْكِنَا الشَّرِيفِ ، وقمْنا عَلَى قَدَمِ الاجتهادِ فى مَصالِحِ هذهِ الأُمَّةِ . وكَشَفْنَا عَنْهمُ غُمَّةَ الظَّلْمِ والجَهْلِ قائلين ـ لاَ يَكُنْ أمْرُكُمْ عَلَيْكُمُ غُمَّةَ .

فَوَرَدَتْ مُفَاوَضَتُكُمْ الكريمةُ تُعْلِنُ أنَّهُ بلَغَ المَسَامِعَ الكريمةَ ذلكَ ، وصَرحْتُمْ بتهنِئَةٍ رائحةُ قَطْرِهَا فى الآفاقِ غَادِية . وأعْرَبَتْ عنْ نحوكُمْ فكانَتْ بِنَسِيمِها القلِيلِ شافية كافيةً . وَرَدَتْ صادرةً عَنِ الغرْبِ فأزهَر الشرْقُ بِوُرُودِهَا . واشْتَمَلَت بوشيِ البَلاَغَةِ فَأمْستْ قِبْلَةً لأَئِمَّةِ الإِنْشَاءِ ، تُوَاظِب الأَقْلاَمُ بِها عَلَى رُكُوعِها وسُجُودِها . واسْتطْرَدَتْ بجيَادِ إنْشائِهَا إلى الوَصِيةِ بِحَاجِّ المَغْرِبِ فَسَابَقْنَا إلىَ قبُولِ ذَلِكَ . فإن (١) هذا ، وقد نَتَبَرَّكُ مِنْ آثارِ النُّجْبِ (٢) السَّائِرَةِ بِهِ بالمَبارِك .

---

(١) هكذا بالأصل .

(٢) النجب : جمع نجيبة وهى الناقة الكريمة .

وقد أَعدناهُ مَصْحُوباً بالسَّلاَمَةِ وحُدَاتُه تَطْرَبُ بِنَفْحَتِها الحِجَازِيَّةِ. وتَهِيمُ اشْتِيَاقاً عِنْدَ تَشْبيبِها بذكرِ الطلْعَةِ المُتَوَكلِيةِ . وَأَعدْنَا جَوَابَ ذلكَ عَلَى يَدِ رَسُولِكُم الذِى لَمْ يُقَابَلْ بِغَيْر القَبُول . لِيَكُونَ خَالِص وِدَادنا إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مُتَمسِّكاً بالكتابِ والرسولِ . واللهُ تَعالى يحفظه فى مُطَابَقَةِ نَقْضِه وإبْرامِه . ويُعَطِّرُ الجِهَاتِ الغَرْبيَّةِ بِمِسْكِ خِتَامِهِ . بمنِّهِ وكَرَمِهِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

٣ — رسالة السكين

قال ابن حجة :

يتعين بعد وصف أقلام المنشئين والدواة ، وصفُ السكين . فإنهم أنشؤا فى وصف السيف والقلم ، وألمُّوا بها . وهى أحق بذلك من غيرها لقربها من القلم . وقد تقدم أن أبا طاهر كمال الدين اسماعيل بن عبد الرزاق الأصفهانى انفرد برسالة القوس ، والشيخ جمال الدين بن نباتة انفرد برسالة السيف والقلم . وقد انفردت برسالة السكين . وهى :

«يقبِّلُ الأَرْضَ التى قامَتْ حدودُ مَكارِمِها . وقَطَعَتْ عنَّا مكروهَ الفَقْرِ بمَسْنُونِ عَزائِمِهَا . ويُنْهِى وُصُولَ السِّكِّينِ التى قَطَعَ بِهَا أَوصالَ الجَفَا . وأَضافَهَا إلى الأَدويةِ فَحَصَلَ بها البرءُ والشِّفَا . وتاللهِ مَا غَابَتْ إلاَّ وَبَلَغَتِ الأَقْلاَمُ مِنْ تَعَثُّرِهَا إلى الجَفَا . زَرْقَاءُ وكَمْ شَاهَدَتْ مِنهَا البِيضُ أَلْوَان[1] خَرْسَاءُ ومنَ العجائِب أَنَّ لَهَا لِسَاناً لِكُلِّ عُنْوانٍ . مَا شَاهَدَهَا مُوسَى إلا سَجَد فى مِحْرَابِ النِّصَابِ[2] . وذَلَّ بَعْدَمَا خَضَعَتْ لهُ الرُّءوسُ والرقَاب .

---

(١) هكذا الضرورة السجع .

(٢) النصاب : جزأة السكين أى مقبضها .

كم أَيْقَظَتْ طَرَفَ القَلَم بَعْدَ مَا خَطَّ . وعَلى الحقيقةِ ما رُئِىَ مثلُها قَط . وكَمْ وجَدَ بِهَا الصَّاحِبُ فى المَضَايِقِ نَفْعًا . وحَكَمَ بِحُسْنِ صُحْبَتِهَا قطْعًا. ماضِيَةُ العَزْمِ قاطِعَةُ السِّنِّ فيها حِدَّةُ الشَّبَابِ من وَجْهَين . لأنَّها بالنَّابِ والنِّصاب مُعْلَمَةٌ مِنَ الطرَفَيْن . أُنْمُلَةُ صُبْح تقمَّصَتْ بسَواد الدُّجى . فَعَوذْتُها بالضحَا والليلِ إِذَا سَجَا . ولسانُ بَرْقٍ امْتَدَّ فى لَهوَاتِ الليْلِ . فتنكَّرَتْ أَشعةُ الأَنْجُمِ حتَّىمَا عُرِفَ منها سهَيْل(١) . هَذَا وتقطيعُها موزُونٌ إِذْ لَمْ يَتَجاوَزْ فى عَرُوضِ ضَرْبِها الحَدِّ . ومعلومٌ أَنَّ السَّيْفَ والرُّمْحَ لم يَعْرِفَا غير الجزْرِ وَالمَدِّ

مِنْ أَجلِنَا تدخلُ فى مَضَايق ... لَيْسَ لِسيْفٍ قطُّ. فيهَا مَدْخَلُ

وكُلُّ مَــا تَفْعَلُه تُوجِزُهُ ... والرُّمْحُ فى تَعْقيدِه يُطَوِّلُ

إِنْ هَجَعَتْ بِجَفْنِهَا كَانَتْ أَمْضَى مِنَ الطَّيْفِ . وكَمْ لَهَا مِنْ خَاصَّةٍ جَازَتْ بِها الحَدَّ عَلَى السَّيْف. تُنْسِى حَلَاوَةَ العَسَّالِ فلا يَظْهَرُ لِطُولِهِ طَائِل. وتُغْنِى عَنْآلَةِ الحَرْبِ بإِيقاعِ ضَرْبِها الدَّاخِل . إِنْ مَرَّتْ بِشكْلِهَا المُحَلَّى تركَتِ المعادِنَ عَاطِلَة . ولم يُسْمعْ للمَدِيد فى هذهِ الواقعةِ مُجَادَلَة . شَهدَ الرُّمْحُ بعدَالَتِه أَنَّهَا أَقْربُ منه إلى الصَّوَاب . وحَكَمَ بِصَحَّةِ ذلكَ مِنْ قبلِ أَنْ يَتَكَامَلَ لَهَا النِّصاب . مَا طَالَ فى رَأْسِ القَلَمِ شعْرَةٌ إلا سَرحَتهَا بإِحْسَانِ . وَلاَ طالَعَتْ كِتَاباً إِلاَّ أَزالَتْ غَلَطَهُ بالكَشْطِ. مِنْ رَأْسِ اللِّسَانِ . تُعْقَدُ عَلَيْهَا الخَنَاصِرُ لأَنَّهَا عُدَّة وعِدَّة . وتَاللهِ مَا وَقعتْ فى قبضَةٍ إِلاَّ أَطَالَتْ لِسَانَها وتَكَلَّمَتْ بحِدَّة . إِنْ أُدْخِلَتْ إِلَى

(١) سهيل : نجم

القِرابِ كَانَتْ قَدْ سُبِكَتْ عَلَى الدُّخُول . أَو أُبْرِزَتْ من غَيْمةٍ كَانَ عَلَى طَلْعَتِها الهِلاَلِيَّةِ قَبُول . تُطْرِفُ بأَشِعَّتِهَا الباهِرَةِ عَيْنَ الشَّمْس . وبإِقَامَتِها الحد حافَظَتِ الأَقلامُ على مَوَاظَبَةِ الخَمْسِ. وكَمْ لهَا مِنْ عجَائِبَ تركَتْ جدْوَلَ السَّيْفِ وهو فى بَحْرِ غِمْدِهِ غَرِيق . وَلَو سَمِعَ بِها مِنْ قَبل ضَرْبه ما حَمَلَ التَّطْرِيق . فلوعَاصَرَها الكَمَالُ لَعَرَكَ[١] مِنْ قَوْسِهِ الأُذُنَيْنِ[٢] . وقالَ لَهُ جَحَدْتَ رِسَالَتَكَ ياذَا القَرْنَيْنِ . فإِنْ جُذِبْتَ إلى مُقَاوَمَتِها و كَانَ لَكَ يدٌ تَمْتَدُّ . وَصَلَتْ السِّكِّينُ مِنْكَ إلى العَظْمِ وصَارَ عَلَيْكَ قَطْعٌ وانتهى أَمرُك إلى هذا الحد . وهل تعانِدُ السكِينَ صورةٌ ليس لها من تركيب النَّظْم إلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهَا أَو[٣] الحَوَايَا أَو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْم. ولوْ لَمَحَهَا الفَاضِلُ لَحقَّقَ قولَه إنَّ خَاطِرَ سِكِّيتِهِ كَل . أَو أَدْرَكَها ابنُ نُبَاتَة مَا أَقَرَّ بِرِسَالَةِ السَّيْفِ وفَلَّ . وقالَ لِقَلَمِ رِسَالَتِهِ أَطْلِقْ لسانَكَ بشُكْر مَوَالِيك ، وأَخْلِص الطاعة لِبَارِيك .

ولمْ يَقْصِدِ المَمْلُوكُ الإِيجازَ فى رسالة هذه السكِّينِ ونَظْمِها . إلاَّ لِتكونَ مختصرةً لحَجْمها . لاَ زَالتْ صَدَقاتُ مُهْدِيها تُتْحِفُ بما يَذْبَحُ نَحْرَ فَقْرِى . وتَأْتِى فى كُلِّ وَقْتٍ بِمَا يشْفِى مِنْ دَاءِ الفَقْرِ وَيَبْرِى » .

---

(١) الكمال : يريد أبا طاهر كمال الدين إسماعيل صاحب رسالة القوس .

(٢) عركه : دلكه وحكه .

(٣) الحوايا : جمع حوية على وزن غنية وهى ما تحوى من الأمعاء ، أى ما استدار وتلوى .

٤ - تقليد ابن البارزى

وكتب ابن حجة على لسان الملك المؤيد شيخ ، تقليداً - أمر تعيين - إلى ناصر الدين محمد بن البارزى بصحابة ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية . وهذا نصه :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لِلهِ الذِى أَوْدعَ محمدًا سِرَّه . وجَعَلَهُ نَاصِرَ دِينِهِ فَحَلَّ بِهِ عَقْدَ الشرْكِ وشَدَّ أَزْرَه . وأَرْسَلَه لِيُنْشِئَ مصالِحَ الأُمةِ فهذَّبَنَا بِتَرَسُّلاتِه . واللهُ أَعْلَمُ حيثُ يَجعَلُ رسالاَتِه . وأَعَزُّ مَنْ لاَزَمَ الطَّوَافَ بأَرْكَانِ بَيْتِنَا الشريفِ ونادَى مُنَادِى سَعْيِهِ المَشْكُورِ حَىَّ عَلَى الفَلاَح . وظَهَرَ صلاحُ الدِّينِ بالديارِ المصريةِ وكَيفَ لاَ ، وَهَذَا القاضِى الفاضلُ هو مُنْشِئُ الصَّلاَح . ومنبرُ دِيوان إِنْشَائِنَا الشَّرِيفِ بصاحبٍ مِنْ بَيْتِهِ ظهَر التميزُ بكفَايتِهِ . وأَيَّدَ الإِسلامَ والمسلمينَ بِمَلِكٍ مُؤَيدٍ تَمَسَّكَ بمحمدٍ وصَحَابَتِه . زَادَهُ اللهُ تأْييدًا وصانَ حِجَابَ المِلةِ فى أَيَّامِهِ المُؤَيَّدِيَّةِ . وعَمَّ شرفُها بالرسالاتِ المحمدية .

أَحْمَدُهُ حمدَ مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَحبِّ البِقَاعِ إليه انقيادًا لِخْدمَتِه . فقاتَل عَنْ سُنَنِه ورُفِعَ بهجرته . ونَاهِيك بالِهجْرةِ المحُمَدِيَّةِ عَلَىَ صاحبِها السلامُ . فإِنَّها للنواظرِ والمسامعِ مرآةُ الزمانِ وتاريخُ الإِسْلاَم .

وأَشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ شهادةَ مَنْ أَخْلَصَ فى حبِّ محمد . وأَشهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الَّذِى ما غَالَى فيه مَلِكٌ إِلاَّ وقالَتْ لَهُ عينُ العنايةِ أَنتَ المُؤَيَّدُ . صلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ الذِينَ نَثَرُوا شَمْلَ أَعْدَائِهِ ، وشَعَرُوا بشَرَفِ بَيْتِه فَنظَمُوا قَوَاعِدَه . صلاةً تكونُ

لَنَا صِلَةً وبأَجملِ العوائِد إن شاءَ اللهُ عائِدَة .

أَمَّا بعدُ ، فَنِعَمُنَا الشريفةُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُها أَنْ تَضَعَ كُلَّ شَيءٍ فى محلِّه . وفضلُنَا المُنيفُ أَبَى أَنْ يكونَ إلاَّ لأَهْلِه . وسرُّنَا المَصُونُ يَجلُّ أَن يَجْلِسَ إلا فى صدور الكرامِ الكَاتِبين . وسلوكُ آدابِ خِدْمَتِنا لمْ ينتظمْ فى سِلْكِها إلاَّ مَنْ إذَا ذُكِرَ الأَدبُ كانَ مَلكَ الْمُتَأَدِّبين . وديوانُ إنْشَائِنَا الشريفُ لَمْ يُدَوِّنْهُ إلاَّ مَنْ إذَا تكلَّمَ كَانَ كُلُّ كَلِمة بِديَوانٍ . وإذَا كتبَ وتَرَسَّلَ طابَ الغَزَلُ فى خُدودِ الوَرْدِ وعَوَارِضِ الرَّيْحَانِ . وأَمْثِلَتُنا الشريفةُ لم يُوَقِّعْها إلا مَنْ غَدَا عِلْمُهُ بِتَوْقِيعَاتِ الرِّقاع مُحَققَا . ولمْ يُغَرِّدْ بِسَجْعِهَا إلاَّ مَنْ أَمْسَى بِنِعْمَتِنِا مُطَوَّقَا . وتَاريخُنَاالمُؤَيَّدِيُّلمْ يُجَدِّد بِهِ عَهْدَ بني أَيُّوب . إلا مَنْ إذَا لَمَعَتْ بوارقُ فضلِهِ بالديارِ المصريةِ قالَ الناسُ ؛ هَذَا هُوَ البَرْقُ الشَّامِيُّ ومُفَرِّجُ الكُرُوب .

وكانَ الجَنَابُ الكريمُ العَالِى القَاضوِىُّ النَّاصِرِىُّ محمد بْنُ البارِزِىِّ الجهنىُّ الشافعىُّ – ضاعفَ اللهُ تعَالَى نِعْمَتَهُ – هو الذى أَوْدَعَهُ اللهُ تعالَى هذهِ الأَسْرَار . وتَرَدَّدَ إلى التَّمَسُّكِ بآثَارِ مُلْكِنَا الشَّرِيف ، فقَالَتْ له مصرُ : الحمدُ للهِ عَلَى طُولِ الأَعْمَارِ ، والتَّرَدُّدِ إلَى الاثَار . وأَوْصَلْنَاهُ إلَى اسْتِحْقَاقِهِ مِنْ رُتَب المَعَالِى . وَرَقَّيْنَاهُ إلى دَرَجَاتِ الكَمَال عِلْماً بأَنَّ الكمالَ مَا خَرَجَ عَنْ بَيْتِهِ العَالِى . لأَنهُ المُنْشِئُ الَّذِى مَا لِابن الصَّاحِبِ دُخُولٌ إلى دِيوانِه . ولا لابنِ عبدِ الظَّاهِر بَلاَغَتُه وقوةُ سُلْطَانِه . وَلاَ للشِّهَابِ محمودٍ كمالهُ فى طارِفِهِ وتَلِيدِه . ولاَ لِلْقَاضِى الفَاضِلِ شرفُ ابنِ البَارِزِىِّ وتمييزُهُ وَلَو بَالَغَ فى كثرةِ شُهُودِهِ . مَا نَثَر فى كِمَامِ طِرْسِهِ زَهْرَهُ

إلا عَرَّفَنَا بِندى يَدَيهِ ذُبُولَ زَهْرِ المَنْثُور . ولا قرعَ أبواب المُصْطَلَح إلا فُتِحَتْ ودَخَل إلى بُيُوتِها مِنْ غَيْر دُسْتُور . ولا مَالَ مُتَسَنِّماً ذِرْوَةَ مِنْبَرٍ إلا جَادَ بِأَلْفَاظٍ كأَنَّ مِزاجَها من تَسْنِيم . وقَالَتِ البُلَغَاءُ لِلْفَصَاحَةِ المُحَمَّدِيَّة مَا ثَمَّ إلا الرِّضَا والتَّسْلِيم .

هَذا . ولَوْ عَاصَرَهُ عبدُ الحميدِ لقصَّرَ عَن شَأْوِهِ البَعِيدِ . ورَأى فَضلَهُ فى زِيَادَة ، وعبدُ الحميدِ عبد الحميدِ . أَو لَحِقَهُ ابنُ العميدِ لاعْتَمَد عَلَى مَا نَثَرَهُ ونَظَمَه .أَوْ أَدْرَكَهُ الصَّاحِبُ بنُ عَبَّاد لقَالَ : صحابةُ محمدٍ مُقَدَّمَة . . .

فلِذَا رُسِمَ بالأَمْرِ الشَّرِيفِ العَالِى المَوْلَوِىِّ السلطانِىِّ الملكى المُؤَيَّدِىِّ السَّيْفِىِّ ، لا زالَ دِيوانُ إنشائِه الشريفُ يُتْحِفُ مِنْ بَدَائِعِه بكُلِّ غَرِيب ويَجْمَعُ شَمْلَ العِلم بِأَحْبَابِهِ فلم يَبْكِ بَعْدَها مِنْ ذِكرَى حَبِيب . ولا بَرِحَ كلُّ مُسْتحِقٍّ مُسْتَوفياً فى هَذِهِ الأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ مَا كَانَ لَهُ فى ذِمَّةِ الزَّمَان مِنَ الدُّيُون . مُتَمَتِّعاً بالارتشَافِ مِنْ عَذْبِ هَذَا المَنْهَل الَّذِى مَا بَرِحَ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُون .

ويُفَوَّضُ للمشارِ إليه صحابةَ دَوَاوِين الإِنشاءِ الشَّرِيفِ بِالمَمَالِكِ الإِسلامية المحْرُوسَةِ ، عَلَى عَادَة القَاضى فَتْحِ الدِّين فَتْح الله وقَاعِدَتِه . ومَا كَانَ بِيَدِه مِنَ الوَظَائِفِ والأَنظَارِ والمُرَتَّبَاتِ ، وغير ذلِكَ ، تفويضاً تَامًّا مَرْعِيًّا . صحيحاً مُعْتَبَرًا مَرْضِيًّا. لِيَصِيرَ حُسْنُ التَّوَسُّلِ إليهِ ، والمُعَوَّلُ فى صِنَاعَةِ التَّرَسُّلِ عَلَيه .

فلْيُقَابِلْ هَذِه النِّعْمَةَ بالشُّكْرِ ويَتَمَتَّعْ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ البَيْنِ بِقُرْبِ المَزَار . ويَعْلَمْ إِذًا حُسْنَ مهاجَرَةِ أَمثالِهِ من الأَنصار . ويَتَحَقَّقْ أَنَّ

وَدَائِعَ سِرِّنَا الشَّرِيفِ لم يُسْقَطْ بِهَا منهُ إلا عَلَى الخبير . ويَبلَّ الثُّغُورَ بريقِ الأَمْنِ فى تَرَسُّلَاتهِ عَنَّا ليصيرَ جَابِرَ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ بِحُسنِ التَّدْبير. وَلْيُطْرِفْ بِحَدَائق إنشائِهِ إذَا لَمَعَتْ بُرُوقُ طُرُوسهَا عَيْنَ الشَّمْس . ولْيجعلْ أَقلامَهُ مُنقطِعَةً فى خدمةِ البَارِى لمُوَاظَبَةِ الخَمْس . ولْيَشْرَعْ فى بَدِيع نظامِ المُلكِ وحُسْنِ انْسِجَامِه . ويَسْلُكْ طريق شيخِ الشُّيوخِ فى دِقَّتِهِ وبديع كَلَامِه . وهْوَ أَوْلَى مَنْ حَسَمَ عَنْ ذَاتِ مُلْكِنَا الشَّريفِ مادة الأَضْرَار . ونُدِب لِحِفْظِ الأَسْرار ، وتسلْسَلَتْ مَعَ الرُّوَاةِ بِحُسْنِ تَدْبِيرهِ الأَخبار وتَأَسَّلَ فى تَدْبيرِ المَمَالِكِ بِحُسْنِ تَأْثيل وتَأْثِير . وتحريرٍ أَطْلَقَ أَلْسُنَ الأَقْلَامِ بِحُسْنِ التَّدْبير .

هَذَا ، مَعَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ تعالَى مِن إرْفَادٍ وإرْفَاق . واسْتِجلابِ الأَدْعيةِ التى يُطلِقُ لَنَا بها أَلسنةَ الرَّعَايَا على الإطْلَاق . ولْيَسْتَطْرِدْ إلَى تَسْفِير البُرُد وتجهيزِهَا . واعتبار الأَحْوالِ فى نَصْبها عَلَى تَمْييزِها . ويُطِيلُ النَّظَرَ فى المُلَخَّصَاتِ ونَسْخِ ما دُلِّسَ منها من النُّسخ . فَقَدَمُهُ إنْ شَاءَ اللهُ بعدَ ذلِكَ كُلِّهَ قَدْ رَسَا ورَسَخ . والوَصَايا كثيرةٌ ولَكِنَّهُ مِمَّن يُسْتَفَادُ بوَصَايَاه . لأَنَّهُ إذَا أُشْكِلَ عَلَى الأُمَّةِ أَمْرٌ كَان عالمَ المسلمينَ وقاضِى القُضَاة .

واللهُ تَعالَى يُبَلِّغُهُ فِى الدَّارَيْن أَقْصَى مَرَامِه . وكَمَا أَحْسَنَ ابْتِدَاءَهُ يَجْعَلُ مِنْ مِسْكِ القَبُول حُسْنَ خِتَامِه . إنْ شَاءَ اللهُ تعَالَى . كُتِبَ ثالثَ عَشرَ شَوَّال المُبارَكِ عَامَ ٨١٥ هـ» .

هـ ـ من شعره

١ – شوق وحنين

نزح ابن حجة عن مسقط رأسه « حماة » ويمم شطر مصر عام ٨٠٢ هـ . فأخذ حنينه إليها يعبث بقلبه ويبعث شكواه ، ويذكره بخلصانه بها وعلى رأسهم صديقه الأثير العالم المنشئ والناصرى محمد بن البارزى . فبعث إليه بهذه الأبيات العذبة يبثه لواعج أشواقه إلى حماة، ويمدحه . قال وقد خاطب ريح الصبا :

يا طيِّبَ الأَخْبَارِ يا رِيحَ الصَّبَا ... يا مَنْ إِلَيْهِ كلُّ صَبٍّ قَدْ صَبَا (١)

يا صادِقَ الأَنفاس يا أَهلَ الذَّكَا ... يا طاهِرَ الأَذْيَالِ كمْ لَكَ مِنْ نَبَا

يا مَنْ نَرَاهُ عِبارة عَنْ حاجِرٍ ... يا رُوحَ نَجْدٍ مَرْحَباً بكَ مَرْحَبَا (٢)

يا نَسْمَةَ الخَيْرِ الَّذِى مِنْ طِيبِهِ ... نَتَنَشَّقُ الأَخبارَ عَنْ تلكَ الرُّبَا

باللهِ إِنْ رَنَّحْتَ ذَيْلَكَ بِالحِمَى ... وَوَرَدْتَ شِعْباً مِنْ دُمُوعِى مُعْشِبَا (٣)

وهَزَزْتَ فيه كُلَّ عُودِ أَرَاكَةٍ ... أَضْحَى بِهَاتِيكَ الثُّغُورِ مُطَيَّبَا (٤)

ولَثِمْتَ من ثَغْرِ الأَقاحِى مَبْسَماً ... أَبْدَى بِدُرِّ الطَّل ثَغْرًا أَشْنَبَا (٥)

وَدَخَلْتَ كُلَّ خِبَاءِ زَهْرٍ قَدْ غدَا ... بِدُمُوعِ أَجْفَانِ الغَمَامِ مُطَنَّبَا (٦)

وطَرَقْتَ حَى العَامِرِيَّةِ ظَامِئاً ... فنَعِمْتَ فى الوَادِى برَيَّا زَيْنَبَا

وحَمَلْتَ مِنْ نَشْرِ الخُزَامَى نَفْحَةً ... مَشْمُولَةً بالطِّيبِ مِنْ ذَاكَ الخِبَا (٧)

---

(١) الصبا : الريح تهب من الشرق . وصبا يصبو : حن .

(٢) حاجر : منزل للحاج بالبادية .

(٣) رنحت : أملت وأدرت . – والشعب : الطريق فى الجبل ومسيل الماء فى بطن الأرض . وهو هنا على التشبيه .

(٤) الأراكة : شجرة من الحمض يستاك بقضبانها .

(٥) الأقاحى : جمع أقحوان وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض وسطه أصفر .

(٦) الخباء : من الأبنية . والمطنب : المشدود بالأطناب أى الحبال .

(٧) الخزامى : نبت طيب الأزهار .

عُجْ بالعُذَيْبِ فإنَّ مَحْجَرَ عَيْنِهِ ... أَضْحَى لِمَا حُمِّلْتَهُ مُتَرَقِّبا[1]

واصْحَبْ عَبيرَ المِسْكِ مِنْهُ فَإِنَّهُ ... لِشوَارِدِ الغِزْلاَنِ أَضْحَى مَشْرَبَا

وإذا تنسَّمْتَ الشَّذَا وَتَعَطرَتْ ... مِنكَ الذيولُ وطِبْتَ يا ريحَ الصَّبَا

عَرِّجْ عَلَى وادِى حَمَاةَ بِسُحْرَةٍ ... مُتيمِّمًا مِنْهُ صعيدًا طيِّبا[2]

واحْمِلْ لَنَا فى طَىِّ بُرْدِكَ نَشْرَهُ ... فَبِغَيْرِ ذَاكَ الطِّيبِ لَنْ نَتطَيَّبَا

واسْرِعْ إلى وداوِ فى مِصْرٍ بِهِ ... قَلْباً عَلَى نارِ البِعَادِ مُقَلَّبَا[3]

لِلهِ ذَاكَ السَّفْحُ والوَادِى الَّذِى ... ما زالَ رَوْضُ الأُنْسِ فيه مُخْصِبَا

وانْعِمْ بمصرٍ نسبةً لكِن أَرَى ... وادِى حَمَاةَ ولُطْفَهُ لِى أَنْسَبَا

أَرضٌ رَضَعْتُ بها ثُدِىَّ شَبيبَتِى ... وَمَزَجتُ لَذَّاتى بكاساتِ الصِّبَا

يا ساكِنِى مَغْنَى حماةَ وَحَقِّكُمْ ... مِنْ بَعْدِكم مَا ذُقْتُ عَيْشاً طَيِّبَا

ومَهَالِكُ الحِرْمَانِ تَمْنَعُ عبْدَكُمْ ... مِنْ أَنْ ينالَ من التَّلاقِى مَطْلَبَا

وإذَا اشتهيْت السْيرَ نحوَ دِيَارِكُمْ ... قرأَ النَّوَى لِى فِى الأَوَاخِرِ من سَبَا[4]

وقد الْتَفَتُّ إليكَ يا دهرِى بِطُو ... لِ تَعَتُّبِى ويَحِقُّ لِى أَنْ أَعْتِبَا

قرَّرْتَ لِى طولَ الشَّتاتِ وَظَيفَة ... وَجَعَلتَ دَمْعِى فى الخُدودِ مُرَتبَا

وأَسَرْتَنِى لكِنْ بِحقِّ محمدٍ ... يا دهرُ كُن فى مَخْلَصِى مُتَسَبِبَا

فمحمدٌ ومَدِينَةٌ قد حلَّهَا ... لم أَلْقَ غَيْرهُمَا لقلبِى مَطْلَبا ... إلخ

---

(١) العذيب : مكان .

(٢) السحرة : السحر الأعلى .

(٣) سهل همزة أسرع للضرورة .

(٤) فى الأواخر من سبا : أى من سورة سبأ .

٢ – تذكر ووفاء

وطال اغتراب ابن حجة عن بلده . فعاد يذكره ويذكر مغانيه ، فى هذه القصيدة الطلية التى بعث بها من طرابلس إلى أستاذه تقى الدين بن الخيشمى الجهنى بحماة عام ٨٢٠ هـ ، ويشكو له الفراق وصرف الزمان و يمدحه وفاء منه له واعترافاً بفضله . وإليك بعض أبياتها :

هوایَ بِسَفْحِ القَاسِمِيَّةِ والجَسْرِ ... إذا هَبَّ ذاكَ الريحُ فهوَ الهَوَى العُذْرِى
وفَقْرِى إلى رَشْفِ الرُّضَابِ الَّذِى حَلاَ ... من النهرِ حَلَّى سائلَ الدمعِ فى النحرِ
ولِى ثَمَّ بينَ المسْجِدَيْن معاهِدٌ ... بها هُدِمَتْ تلكَ المعاهدُ من صبْرِى
يروقُ امتدادُ الجَسْرِ والقصرُ دُونَهُ ... فيحلُو طِباقُ العَيْشِ بالمَدِّ والقَصْرِ
وقد أَصبَحتْ تلك الجزيرةُ جَنَّة ... أَلم تنظرِ الأَنهارَ مِنْ تَحْتِهَا تَجْرِى
تَفُوقُ عيونُ الزَّهْرِ فوقَ شُطُوطِهَا ... عيونَ المَهَا بَينَ الرُّصَافَةِ والجِسْرِ (١)
وإن جُزتُ فى الرمضَاءِ بينَ غُصُونِها ... جَلَبنَ الهَوى من حيثُ أَدرِى ولا أَدْرِى (٢)
وعاص رحيبِ الصدْرِ قد خَرَّ طائِعاً ... ودُولاَبُهُ كالقَلْبِ يَخْفُقُ فى الصدْرِ (٣)
وقد أَشْبَه الخنساءَ نَوْحاً وإنه ... وهَا دَمْعُهُ قد جاءَ يَجرِى على صَخْرِ
فَيَاجيرَةَ العَاصِى إذا ذُقْتَ ماءَكُمْ ... أَهِيمُ كأَنِّى قَدْ ثَمِلْتُ مِنَ السُّكْرِ
ولولا بقَايا طعمِهِ فِى مَذَاقَتِى ... لما ظَهَرَتْ هَذِى الحَلَاوَةُ من شِعْرِى
فَآهاً على وادِى حماةَ تَأَسُّفاً ... خِلاَفاً لمن قد قالَ آهاً على مِصْرِ (٤)

---

(١) المها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية وهى سوداء العين جميلتها .

(٢) الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة . وفى البيت وما قبله تضمين لبيت مشهور لعلى بن الجهم وهو قوله :

عيـون المها بين الرصـافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

(٣) العاصى : نهر حماة . وخر : من الخرير وهو صوت الماء ، وفيها تورية . والدولاب : الساقية .

(٤) من قد قال آها على مصر : هو ابن نباته فى بعض شعره .



فكمْ مرَّ لِي فيهَا حــلاوة ليلةٍ ... فكانتْ شبية الخالِ فى وَجْنَةِ العُمْرِ
وفى غيرهَا قد صِرْتُ أَقْضِى لياليًا ... تَمُرُّ بِلاَ نَفعٍ وتحُسَبُ منْ عُمْرِى
وَإِنْ كانَ قدرِى فى طَرَابُلُسٍ عَلَا ... وقد لَقِيتَنْنِى وَهْى باسِمَةُ الثَّغْر
فإِنَّ فِرَاقَ الإِلْفِ والخِلِّ والهوَى ... وفقدَ الحِمَى والأَهْلِ صَعْبٌ على الحُرِّ
بلادٌ بها نِيطَتْ علَىَّ تَمَائِمِى ... وحُزْتُ بها ما حُزْتُ من رِفعَةِ القَدْرِ (١)
وإِنْ كنتُ فِيها قد أُصِبْتُ بغَلْطةٍ ... من الدَّهْرِ إِنِّى قَدْ صَفَحْتُ عَنِ الدَّهْرِ
فيا ساكِنِى مَغْنَى حَمَاةَ نَعِمْتمُ ... صَبَاحاً ولو أَلْغَيْتُمُ فى الهوَىِ ذِكْرى
فَوُدِّىَ وُدِّى مِثْلَمَا تَعْهَدُونَهُ ... وَلَكِنَّ صَبْرِى عنكُمُ عَادَ كالصَّبْرِ (٢)
وقد كنتُ أُخْشَى هَجرَكُمْ قبل بُعْدِكُمْ ... فلَمَّا بعُدْتُمْ قلتُ آهاً عَلَى الهَجْرِ
وإِنْ جُلْتُ فى مَيْدانِ نَظْمِى تَشَوُّقاً ... تُسابِقُنِى حُمْر المدَامِعِ بِالنَّثْرِ
وشيعِىٌّ هَمِّى كُلَّما رامَ بُعْدُكُمْ ... يُحَارِبُنِى ناديتُ يَالأَبى بَكْرِ .. إلخ

---

(١) نيطت : علقت . والتمائم : جمع تميمة وهى خرزة تعلق فى العنق يعوذ بها الطفل .

(٢) عاد كالصبر : صار مراً . والصبر بكسر الباء ، وسكنت هنا لضرورة الشعر ، عصارة شجر مر .

٣ – تحية وقدوم

ودخل ابن حجة مدينة دمشق الفيحاء . و بها عالمها الجليل وقاضيها العادل برهان الدين بن جماعة ، فحياه ابن حجة بهذه القصيدة العصماء الرقيقة ، معارضاً بها كافيات [١] ابن نباته والقيراطي والحلى ، ومتغزلا فى صدرها غزلا شهياً . ونقتطف منها هذه الأبيات .

طَرِبْتُ عندَ سَماعِي وَصْفَ مَعْنَاكِ ... فكيفَ لَوْ كَانَ هَذَا عِنْدَ مَغْنَاكِ [٢]

ياظبيةً نَفَرَتْ عَنْ مَرْتَعِي وَرَعَتْ ... حُشاشَةَ القَلْبِ عينُ اللهِ تَرْعَاكِ

أَغْرَوْكِ بِي ثم قالُوا كنْ على حذَرٍ ... واحيرتى بين تحذيرى وإِغْرَاكِ [٣]

بِمُرِّ هَجْرِكِ عُجباً قد قَضَيْتِ لَنَا ... وشاهدُ الحسنِ بالإحسانِ حَلَّاكِ

ومُذْ تَحَجَّبْتِ يا دُنيَا بلا سَبَبٍ ... ناديتُ يا مهجتى فارقْتُ دُنياكِ

إن كنتِ أدركتِ معنى الحُسْنِ من صِغَرٍ ... فقد فَهِمْتُ الهَوَى من قبل إدراكِ

قيدْتِ أَسْرَاكِ فى بَحْرِ الهَوَى عَبَثاً ... كُفى القتال وفُكِّى قَيْدَا أَسراكِ [٤]

يافتنةَ البيضِ قُلْنا أنتِ غُصْنُ نَقاً ... وما عَلِمْنَا بأَنَّ السُّمْرَ تخشاكِ [٥]

أَنْشَيْتِ للوجدِ فى خَدَّى منْ مُقَلِي ... رَسائلاً جَلَّ مَنْ بالحُسنِ أَنْشَاكِ [٦]

---

(١) لكل من ابن نباتة والحلى والقيراطى كافية من البحر والروى . يعارضها ابن حجة بكافيته هذه . ومطلع ابن نباتة قوله :

لمت ثغر عذولى حين سماك ... فلذ حتى كأنى لاثم فاك

ومطلع الحلى قوله :

كفى القتال وفكى قيد أسراك ... يكفيك ما فعلت فى الناس عيناك

ومطلع القيراطى قوله :

لطلعة البدر جزء من محياك ... وللصباح نصيب من ثناياك

(٢) المغنى : المنزل .

(٣) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

(٤) فى الشطر الثانى تضمين

(٥) النقا : الرمل القطعة منه محدودبة . والسمر يريد بها الرماح .

(٦) أنشيت : أنشأت سهلت همزته ، ومثله أنشاك .

رقَّقتِ أَجسامنَا يومَ النَّوَى شَغَفًا ... فَمَا أَرَقَّ مُحِبِّيكِ وَأَجْفَاكِ

ومُذْ مَلَكْتِ عَزَلْتِ النَّوْمَ عَنْ مُقَلِي ... وحَاسِدِى كُلَّمَا أَقبلتِ وَلاَّكِ

لولاكِ ما قلتُ شِعْرًا لاَوَلاَ حَفِظَتْ ... عينى «قِفَانَبْكِ» يومَ البَيْنِ لولاكِ

يا كعبةَ الحُسْنِ طافَ العبدُ يسأَلُ أَنْ ... يَكونَ من فَوقِ حُرِّ الوَجْهِ مَسْعَاكِ

حَوَيْتِ رِيقاً نَباتِيًّا حَلاَ فَغَدَا ... يُنَظمُ الدُّرَّ عِقْدًا فى ثَنَايَاكِ

فلو تُبَاهِيكِ أَسْمَا مَا سَمَتْ أَبداً ... وذكرُ عَلْيَا يُوَطًّا عندَ علْيَاكِ(١)

بَليتِ فى عِشْقِهَا لمَّا بُلِيتُ بِهَا ... يامُهجَتِى جَلَّ مَنْ بالعِشق أَبْلاَكِ... إلخ

٤ ـ فرحة بلقاء

وزار القاهرة فلقيه أديبها ملك النظم والنثر فيها الصاحب فخر الدين بن مكانس . واحتفى به وبشعره وقرظه له ، وقد عبر ابن حجة عن فرحته بهذا اللقاء بقصيدة غراء جزلة مدح بها الفخر ، وصدرها بغزل رقيق . ومنها هذه الأبيات .

قَدْ مَالَ غصنُ النَّقَا عَنْ صَبِّه هَيفَا ... يا لَيْتَهُ بِنَسِيمِ العَتْبِ لوْ عَطَفَا(٢)

غُصْنٌ غدَا مُخْلِفاً لَكِنْ لِعَاشِقِهِ ... ولَمْ نَجِدْ عَنْهُ فِى بَانِ النَّقَا خَلَفَا

مالاَحَ خَاطِفُ بَرْقٍ مِنّ ثَنِيتِه ... إلاَّ غَدَا مِنْهُ لَوْنُ البَرْقِ مُخْتَطَفَا(٣)

شريفُ حُسْنٍ ومُخْضَرٌّ العِذَارِ لَهُ ... علاَمَةٌ وبهذَا تُعْرَفُ الشُّرَفَا(٤)

لما تَخلَفَ أَرْخَى فوقَ قامَتِــهِ ... ذُؤابَةً قلتُ هَذِى رايةُ الخُلَفَا

كَذَا بدورُ السَّما فى التِّم لو نُسِبَتْ ... إليه فى الحُسْنِ كانتْ تَبْلُغُ الشَّرَفَا

مِزَاجُ خَمرَةِ فِيهِ جاءَ مُعْتَدِلاً ... فراحَ مِنهُ مِزاجُ الرَّاحِ مُنْحرفَا

---

(١) يوطا : مهموز سهلت همزته .

(٢) النقا : قطعة الرمل تسير محدود به . والهيف : ضمر البطن ورقة الخاصرة

(٣) الثنية : الطريق .

(٤) العذار : صفحة الخد

ومُذْ غَدَا جِسْمُهُ ماءً بِرِقَّتِـهِ عَلِمْتُ واللهِ أَنَّ القَلْبَ مِنهُ صَفَا
منهُ الغَزَالَةُ غارَتْ عَيْنُهَا حَسَدًا والبدرُ قَدْ لازَمَ التَّسْهِيدَ والكَلَفَا
والظَّبْيُ قالَ أَنا أَحْكِي لَوَاحِظَهُ فَصَحَّ عِنْدِيَ أَنَّ الظَّبْيَ قد خَرِفَا
غُصْنٌ غَدَا مُثْمِرًا بالحُسْنِ واعَجَبِي وهْوَ الَّذِي لِثِمَارِ الصبْرِ قد قَطَفَا
قَوَامُهُ شَمْعَةٌ فى قالبٍ حَسَنٍ قلبِي عليهَا بنيران الجوَى نَطَفَا (١)
يالَلْعَجَائِبِ فى فيهِ حَوَى دُرَرًا والمنهلُ العَذْبُ فيه الدُّرُّ ما صَدَفَا
كمْ رُمْتُ مُذْ غُصْتُ بَحْرَ العِشْقِ من شَغَفِي لو كانَ طَرْفِى لغالِى دُرِّهِ صَدَفَا
مُذْ صارَ لى قِبْلَةً مِحْرَابُ حاجبهِ صَيَّرْتُ عابِدَ طَرْفِى فِيهِ مُعْتَكِفَا
ولاَمَ فيه عَذُولى قلتُ مِنْ كَلَفِي قلْبِي رأى منهُ قَدًّا فى الهوى أَلِفَا (٢)
نسيمُ أَذْيَالِه فى الرَّوْضِ حِينَ سَرَى رأَيْتُ غُصنَ النَّقَا من خَوْفِه رَجَفَا (٣)
كذا لواحِظُهُ فى فَتْكِهَا قَوِيَتْ والسِّحْرُ يُوهِمُ طَرْفِى أَنَّهُمْ ضُعَفَا ... إلخ

٥ ـ تقدير وشوق

وكان ابن حجة بدمشق فى عام ٧٩٧ هـ أو نحوه ، فاقترح عليه أن ينظم رائية يعارض بها إحدى رائيات ابن نباتة . فنظم هذه القصيدة العصماء يمدح بها قاضى القضاة الأديب علاء الدين بن أبى البقاء الشافعي . وقد تغزل فى صدرها وأطال وأجاد ، ثم ثنى بالمدح فأبدع وأفاد . ومنها هذه الأبيات :

إغراءُ لَحْظِكِ مَالِى مِنْهُ تَحْذِيرُ ولا لِتَعْرِيفِ وَجْدِى فيكِ تنكيرُ
يا نَصْبَ عَيْنِ غَرامِى كيف أَجْزِمُهُ والقَدُّ مرتفِعٌ والشَّعْرُ مجرورُ

(١) نطف : سال
(٢) الكلف : العشق
(٣) النقا : قطعة الرمل
(٤) الشاعر فى هذا البيت والذين بعده يورى بمصطلحات النحو فى غزله .



والنَّهْدُ برَّزَ فى تحقيقهِ فغَـدَا ... لَهُ مِن الحُسْنِ إشْغَالٌ وتَصْدِيرُ

وسيفُ ناظِرِهِ بالحد قابَلَنَا ... فلا يُرَى قَطُّ إلا وَهْوَ مَخْمُورُ

ومُذْ سَرتْ نَسَمَاتُ الثغْرِ باردة ... بَدا بإغْضاءِ ذاكَ الجفن تكسيرُ

وحمرَةُ الخَدِّ أَبَدتْ خَيْطَ عَارِضِهِ ... فخِلْتُ كَأْسَ مدَامٍ وهو مَشْعُورُ

كَتَمْتُ واللهِ رُؤْيَا طَيْفِهِ فَبَدَا ... لِرُؤْيَتِى مِنْ عَبير الخالِ تَعْبِيرُ

وكيفَ أَكْتُمُ وَجْدِى مِنْ هَوَاهُ وَلِى ... مِنْ أَحمرِ الدَّمْعِ فَوْقَ الخَدِّ تشهير

ونارَ خدَّيْهِ قَلْبِى أَرْخَصتْ وَغَلَتْ ... لَمَّا غدتْ وَلَهَا فى القَلْبِ تسعيرُ

وقالَ أَغْمَدتُ سَيْفَ اللَّحْظِ مِنْكَ فكيـ ... ـفَ الحالُ قلتُ له واللهِ مَشْهُورُ

أُجَاوِرُ الخَصْرَ يُعدِينى السَّقَامُ ولِلْـ ... ـمُجاوِرَاتِ كما قَدْ قِيلَ تأْثِيرُ

لكنْ بعَهدِ زَرُودٍ يا عَوَارِضَهُ ... عَلَىَّ إنْ ضِعْتُ مِنْ عُظْمِ الضنَا دُورُوا[1]

ورُبَّ آياتِ حُسْنٍ أُحْكِمَتْ وَلَها ... دُونَ السَّتَائِرِ كشَّافٌ وتَفْسِيرُ

بُدُورُ تِمٍّ عُرَا ثَوْبِ الدُّجى فَصَمُوا ... وطَوْقُهُ بالنجوم الزُّهْرِ مَزْرُورُ[2]

واللهِ لم أَتَغَيَّرْ عَنْ محَبَّتِكُمْ ... يَوْماً وإنْ كانَ جِسْمِى فيه تغييرُ

قَالُوا فَعَرِّجْ عَلَى وَادِى حَمَاةَ بِنَا ... فنهْرُهَا بَعْدَنَا بالغَيْضِ مَكْسُورُ[3]

فقلْتُ قَدْ قَرَّ قَلْبِى فى دِمَشْقَ وَلِى ... مِنْ فَضْلِ قَاضِى قُضَاةِ الشَّامِ تقريرُ

مَوْلًى طَوَيْنَا به أَخبَارَ مَنْ سَلَفُوا ... لِأَنَّهُ عَلَمٌ بالفضلِ مَنْشُورُ ... إلخ

---

(١) العوارض : جمع عارضة وهى صفحة الخد ، يريد ما دار بها من الشعر

(٢) عرا : منصوب لأنه مفعول به مقدم لقوله فصموا .

(٣) الغيض : نقص الماء ضد الفيض .

٦ ـ تبادل عتاب

وسعى بعض الوشاة بالوقيعة بين الشاعر وصديقه المقر الأشرف الأمينى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، فتوقفت الرسائل بينهما بسبب ذلك . ثم تبين كذب الوشاة ، فكتب الشاعر إلى صديقه هذه الأبيات الرقيقة العاتبة ، ومدحه فى أعقابها :

مَنْ بأَسْيافِ هَجْرِهِم كَلَّمُونَا ... ما عَلَيْهِم لَوْ أَنَّهُمْ كلَّمُونَا (١)

أَغلَقُوا بابَ وَصْلِهِمْ فَتحَ اللَّـ ... ـهُ لَهُمْ بالهناءِ فَتْحاً مُبِينَـا

مَلَكُوا رِقَّنَا فَصِرْنَا عبيدًا ... لَيْتَهُم بعدَ رِقِّنا كَاتَبُونَا (٢)

وغَدَوْنَا لَهُمْ أَرِقَّـا وَلِكنْ ... قد تَجَافَوْا بالهَجْرِ مُذْ رَقَّقُونَا (٣)

شَرَّقُونَا بِمَدْمَعِ العَيْنِ عُجْبًا ... لَيْتَهُمْ عندَ مَوْتِنَا قَبَّلُونَا

فَطَرُوا بالبِعَادِ مِنَّا قُلُوباً ... حينَ أَضْحَوْا عَنْ وَصْلِنَا صَائِمِينَا (٤)

وَصَلُوا هَجْرَنا وَعَيْشِ هَوَاهُمْ ... لم نَحُلْ عَنْهُمُ ولَوْ قَطَعُونَا

حَسِبُوا بُعْدَنا بِسُرعةِ هَجْرٍ ... فاسْتَعَنَّـا بأَسرعِ الحَاسِبِينَا

ولَهُمْ فى الهَوَى بِأَنْ يَسْتَحِقوا ... بَيْعَنَا بالهَوَانِ لَوْ حَاسَبُونا

شُرَفَاءُ الجَمَالِ سَاداتُ حُسْنٍ ... لَيْتَهُمْ بالوِصَالِ لَوْ شَرفُونَا

قَدْ وَقَفْنَا بِبَابِهِمْ فقــراء ... بالفَقِيرى لَوْ أَنَّهُمْ أَنْصَفُونَا

أَسْبَلُوا طُرَّةَ الجَفَا لَيْتَ شِعْرِى ... هَلْ نَرَى مِنْ صُبْحِ الوِصَالِ جَبِينَا (٥)

---

(١) كلمونا : جرحونا وفى البيت جناس ، ويشبهه قول . . . قول إسماعيل صبرى الشاعر المصرى المشهور :

طرقت الباب حتى كل متنى ... فلمـا كل متنى كلمتنى

فقالت لى أيا إسماعيل صبراً ... فقلت لها أيا أسما عيل صبرى

(٢) كاتبونا : مأخوذ من العبد المكاتب وهى الذى كاتبه سيده على مال يدفعه فيصير حراً

(٣) رققونا : صيرونا أرقاء

(٤) فطروا : شقوا .

(٥) الطرة : جانب الثوب الذى لا هدب فيه . أو الناصية .

وتَقَرُّ العَيُونُ مِنَّـــا وَيَدْنُو حاجبٌ كَانَ بالْجَفَا مَقْرُونَا

يا نزولا حِمى الفراديسِ بالشا م وأَعلامُهُم على قَاسِيونَا(١)

بالنسيم العليل منكمُ إذا هَ بَّ على الغَوْرِ والرُّبا عَلِّلُونَا

وارْحَمُوا سائلَ الدُّمُوعِ وباللَّ ه عَلَيْكُمْ لا تَنْهَرُوا السَّائِلِينَا

وإذَا ما نَهَرْتُمُ الدَّمْعَ نَهْرًا لا تَخُوضُوا فيه مع الخَائِضِينَا

حَبُّكُم فَرْضُنَا وسيفُ جَفَاكُم قَدْ غَدَا فى بِعَادِنَا مَسنُونَا

والحَشَا لَمْ تَخُنْ عُهُودَ وفَاكم واسْأَلُوا مَنْ غَدَا عليكمْ أَمِينَا

كاتبُ السِّرِّ كاتمُ السِّرِّ ذُوالفَضْ لِ أَمينُ الأَسرارِ فى العالَمِينَا(٢)

مَنْ غَدَا كعبةَ الفضَائِلِ حَقًّـــا وغَدَوْنَا مِنْ حَــوْلِهِ طَائِفِينَا

وإذا شِئْتَ قُلْ لِطَالِبِ عِلْم إنَّهُ اليومَ عُمْدَةُ الطَّالِبينا

وإذا شِئْتَ قُلْ لِمنْ خَافَ قَهْرًا إنَّهِ اليومَ مَلْجَأُ الخَائِفِينا

وإذَا شِئْتَ قُلْ لِمَنْ هُوَ ظَامٍ إنَّهُ اليومَ مَوْرِدُ الوَارِدِينَا(٣)

وَصْفُهُ طائِلٌ ونحنُ أُنَاسٌ عن معانِى أَوْصَافِهِ قاصِرُونَا ..إلخ

٧ ـ عودة المودة

واستبشر ابن حجة وشدا بهذه الأبيات ، وقد ورد عليه مبشر من لدن صديقه أبي الحسن على البهاء ، يحييه ، بعد جفوة طويلة ، فقال :

مَرْحَباً مَرْحَباً بِدَاعِى الهَنَاءِ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ الجَفَا والتَّنَائِى

وَأَتَانِى مِنَ الحَبَائِبِ نَشْرٌ صَادِقُ النَّقْلِ زائدٌ فى الذكَاءِ(٤)

---

(١) قاسيون : جبل بدمشق .

(٢) كاتب السر : أى هو كاتب السر ، يعنى الممدوح .

(٣) ظام : اسم فاعل من ظمىء يظمأ ، سهلت همزة الفعل ثم عومل كالمعتل بالياء .

(٤) النشر : الرائحة الطيبة . وذكاء الرائحة . سطوعها وشدتها .

هَبَ مِنْ جَيْبِهِمْ فأَحْيَا فُـؤَادا ... كانَ بالهَجْرِ مَيِّتَ الأَحْشَاءِ
وَرَوَى مُسْنَدَ الرِّضَا فى التَّحِيَّا ... تِ فسلمْتُ مُعْلِناً فى الدُّعَاءِ
جاءَ يسرِى فى لَيْل نَفْس وَدَاجٍ ... فَسَعِـدْنا بلَيْلَـةِ الإِسْراءِ
ليلُ نَفْسِى بالطِّرْسِ أَقْمَرَ حتى ... نَتَمَـلَّى بالليـلةِ القَمـرَاءِ (١)
ذُو مَعَانٍ مِنَ السُّطُورِ تَبدَّتْ ... كبُدُورٍ طَلَعْنَ فى الظَّلْمَـاءِ
رفَعَتْ عَنْ وَجْهِ البَدِيعِ حِجَاباً ... وتَجلَّتْ بطلعـةٍ غَـراءِ
قلتُ إِذْ لاَمتِ الحِسَانُ عليهَا ... أَقْصِرُوا يا ضَرَائِرَ الخَنساءِ
سِحْرُ لفظٍ كأَنَّهُ سِحْرُ لَحْـظٍ ... قَام يَرْنُو بمُقْلَةٍ كحْلاَءِ
وإذا جَاءَ بالتفاتٍ بديعٍ ... لا تَسَلْنِى عنِ الْتِفَاتِ الظِّبَاءِ
قد ثَمِلْنَا منهُ بإِنْشادِ لَفْظٍ ... فَغَنِينَـا عَنْ خمْرَةِ الإِنْشاءِ
خَمْرُ ذَوْقٍ لَو ذَاقَ بِسْطامُ مِنْهُ ... لتَناءَى به عنِ الصَّهْبَـاءِ
وإذا هَبَّ نَشْرُهُ عِنْدَ طَيٍّ ... لم يرُقْ بَعْدَهُ كلامُ الطَّائِى (٢)
وبه أَوْجُـهُ البيان علينَـا ... تتجـلَّى بِحُسْنِهـا والبهـاءِ
أَنا لولاهُ لم يكنْ لِقَرِيضِى ... قصصٌ فى مَسامِعِ الشعراءِ ... إلخ

---

(١) الطرس : الصحيفة .

(٢) طى : اسم قبيلة ، أو ضد النشر ففيه تورية . والطائى : الشاعر المنسوب إلى طى ، ولعله يقصد أبا تمام أو البحترى .



٨ — جيش فى فرد

وكان الأمير تمربغا الأفضلى الشهير بمنطاش الأشرفى نائباً على حماة . وكان له تاريخ حافل بالجهاد والحروب . وقد انتصر فى بعض وقائعه ضد أعداء الدولة بما أوتى من شجاعة وحزم كان بهما جيشاً فى فرد . فمدحه ابن حجة بهذه الفريدة التى تغنى هو بمحاسنها والتى منها هذه الأبيات وفيها المعانى والتشابيه المجددة :

اللهُ أكبرُ جيشُ الظُّلمِ قد كُسِرَا ... والحمدُ للهِ جيشُ العَدْلِ قد نُصِرَا

مَلْكٌ شُجَاعٌ لَهُ فى الحربِ مُبْتَدَأٌ ... قد صَيَّرَ القَوْمَ فى يوم اللِّقَا خَبَرَا

إن أَبْرَقَتْ فى سَمَا الهَيْجَا صوارِمُهُ ... رأيتَ غيثَ دِمَا الأَبطالِ قدْ مَطَرَا (١)

فمن رَأَى مِنْهُمُ بَرْقاً يَلُوحُ لهُ ... يَظُنُّهُ سَيْفَهُ الماضِى قد اشتَهَرَا

له مُطَالَعَةٌ فى الحربِ حينَ يَرَى ... دَمَ العِدَى فوقَ طِرْسِ الأَرضِ قدسَطَرَا (٢)

إن رَاسَلَ القَوْمَ أَنْشَا فى رسائله ... سجْعاتِ ضَرْبٍ بِهَا الهاماتِ قد نَثَرَا (٣)

كتابُهُ السَّيْفُ والخَطِّى لَهُ قَلَمٌ ... والرُّسْلُ أَسْهُمُ حتفٍ تُوضِحُ الخَبَرا (٤)

إنْ كانَ قد نَظَمَ الأَعْدَا مكيدتَهُمُ ... فقُلْ لَهُمْ إنهُ مِنْ قَبْلِهِمْ شَعَرَا

لأَنَّهُ ببديعِ السَّيْفِ لَفَّ لَنا ... شَمْلاً ولكنْ لِأَرقابِ العِدَى نَشَرا

وخَطَّ مِنْ فَوْقِ أَلواحِ الصُّدُورِ لَهُمُ ... باباً مِنَ الخَوْفِ فى أَحْشَائِهِمُ وَقَرَا

وصارَ يَكْتُبُ بالهِنْدِى ويُعْجِمُ بِالْ ... خَطِّىِّ فِعْلَ شجاعٍ قَدْ قَرا وَدَرَى (٥)

---

(١) الهيجاء : الحرب . والصوارم : السيوف

(٢) الطرس : الصحيفة .

(٣) أنشا : أنشأ سهلت همزته .

(٤) الخطى : الرمح منسوب إلى الخط مكان بالبحرين اشتهر بالرماح .

(٥) الهندى : السيف منسوب إلى الهند حيث يصنع . وقرا : سهلت همزته من قرأ . وفى البيت توجيهات ورعاية نظير من وادى الكتابة والقراءة . ويعجم : يضع النقط .

تراهُ بالرُّمْحِ بَدْرًا حَامِلا غُصُناً — وبالتَّرِيكَةِ غُصْناً حامِلا قَمَــرَا (١)

إنْ جَسَّ عُودًا لضَرْبٍ مالَ سامِعُهُ — والخيلُ يُرْقِصُهَا إنْ حَرَّكَ الوَتَرَا

كأَنَّمَا الهَامُ أَحْدَاقٌ أَضرَّ بِهَــا — سُهْدٌ وأَسْيَافُهُ فى الحَرْبِ طِيبُ كَرَى

وعندَمَا اعتَقَلَ الخطَّارَ قيلَ لَهُمْ — وَلُّوا فإِنَّا نَرَى خَطَّارَهُ خَطَــرَا (٢)

يـأَيُّهَا المَلِكُ المَمْدُوحُ والبَطَلُ الـ — مَحْمُودُ فى الحربِ ياجَبْرًا لِمَنْ كُسِرَا

أَذْكَرْتَنَا لِعَلِيٍّ فِى وَقَائِعِــهِ — وفِى الفُتُوحَاتِ قَدْ أَذْكَرْتَنَا عُمَرَا (٣)

بالأَمسِ فى حِصْنِ «سِيَواسٍ» تَجَمَّعَتِ الـ — أَحزابُ نَحْوَكَ لَمَّا أَنْ أَتَوْا زُمَرَا

فأَذْكَرُونَا سُلَيْمَاناً وقدْ نفَرُوا — كالنَّمْلِ مِنْ خَوْفِهِم يا آيةَ الشُّعَرَا

جاءُوا بِعَينٍ لِيَقْفُوا مِنْكُمْ أَثَرًا — فما تَرَكْتَ لَهُمْ عَيْنًا ولاَ أَثَرَا

وعِنْدَمَا أَعْرَبُوا عَنْ رَفْعِ مُبْتَدَأً — فى الحربِ صيرْتَهُمْ بَيْنَ الوَرَى خَبَرَا (٤)

صَدَمْتَهُمْ بِجَنَانٍ لَوْ صَدَمْتَ بِهِ — صَدْرَ الصَّباحِ عَقيبَ الصُّبْحِ مَاسَفَرَا

وكَمْ عَلَوْتَ بِنَهْدٍ فَوْقَ صَدْرِ فَتًى — كَلَّمْتَهُ بلسانِ السَّيفِ مَختصَرَا (٥)

وحينَ أَوْكَبَتِ الشهباءُ حَمْحَمَتِ الـ — شَّقْرَاءُ شَوقاً عَسَاهَا بِالشَّآمِ تُرى (٦)

وقد دَخَلتَ حَمَاةً فهِى قدْ حُمِيَتْ — يا بردَ قلبِى بعزمٍ قَطُّ ما فتَرَا

وقد تَحَسَّر عاصِيها وخَرَّ لكمْ — طوْعاً وَسَاقَ الجَوَارِى نحوكُمْ وجَرى (٧)

---

(١) التريكة : بيضة الحديد .

(٢) اعتقل رمحه : وضعه بين ساقه وركابه ، كناية عن استعداده للقتال . والخطار : الرمح المهتز . وخطر : من الخطورة أو بمعنى تبختر واهتز .

(٣) أذكرتنا لعلى : عدى الفعل بلام الجر ، وحقه أن يتعدى بنفسه فيقول أذكرتنا عليا ، ولكنها ضرورة أو لحق .

(٤) عقيبه : بفتح فكسر . بمعنى بعد ، تنكرها بعض معجمات اللغة .

(٥) النهد : يريد به الفرس الحسن الجميل الجسم اللحيم .

(٦) أوكبت : لزم الموكب . والشهباء : الفرس البيضاء يصدع بياضها سواد . والشقراء الفرس الحمراء ولعله يريد به بعض مواضع الشام . وحمحمت : الحمحمة من أصوات الفرس .

(٧) العاصى : نهر حماة . وخر : صوت ماؤه . الجوارى السفن ، وفى الأبيت توريات .



وَمُذْ صَعِدْتَ بحمص يومَ وَقْفتِها حَجَبْتَ أَعْدَاكَ حتَّى رَكْبُهُمْ نَفرَا

تركْتَهُم لِسُيُوفِ الهنْدِ أُضْحِيةً لمَّا غَدَوْا لَكَ يا ليثَ الوغَى بَقرَا (١)

وفى طوافِ وَدَاعِ الرُّوحِ يَوْمَ وَغىً صيَّرْتَ كُلَّ شُجَاعٍ يَلْثُمُ الحَجَرَا

غَزَوْتَهمْ فى ربيعٍ قدْ تلوَّنَتِ الـ كُثبَانُ فيهِ ولكنْ رَبْعُهُمْ صَفِرا ... إلخ

٩ ـ تاريخ حياة

وفى قصيدة طويلة غراء ، سجل ابن حجة بإيجاز الشعر ، تاريخ حياة الملك المؤيد شيخ ، التى قضاها مغامراً فى سبيل آماله ومجده ، ومجاهدا فى سبيل دولته ودينه ، ومحارباً فى سبيل العروبة ضد أعدائها .

وقد أنشدها الشاعر بين يديه فى شوال عام ٨١٥ بقلعة الجبل فى يوم مشهود . ومنها هذه الأبيات .

كأْسُ المَسَرَّةِ فى البَرِيَّةِ دَائِرُ والمُلْكُ بالمَلِكِ المُؤَيَّدِ زَاهِرُ

مَلِكٌ مِن الأَنْصَارِ قد أَمْسَى لِدِيـ نِ مُحَمَّدٍ ولَهُ الأَنَامُ تُهَاجِرُ

يَا حَامِىَ الحَرَمَيْنِ والأَقْصَى وَمَنْ لَوْلاَهُ لَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ (٢)

واللهِ إنَّ اللهَ نَحْوَكَ نَاظِرٌ هَذَا وَمَا فِى العَالَمِينَ مُنَاظِرُ

فَرَجٌ عَلَى اللَّجُّونِ نَظَّمَ عَسْكَرًا وأَطَاعَهُ فى النظمِ بَحْرٌ وَافِرُ (٣)

فَأَبَنْتَ مِنْهُ زِحَافَهُ فِى وَقْفَةٍ يَامَنٌ بِأَحْوَالِ البَرِيَةِ شَاعِرُ

وجميعُ هَاتِيكَ البُغَاةِ بأَسْرِهِمْ دَارَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُطَاكَ دَوَائِرُ (٤)

---

(١) الوغى : ضجة الحرب .

(٢) تضمين لقول مضاض بن عمرو أو الحارث بن عمرو بن مضاض .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكه سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

(٣) اللجون : موضع بالشام كانت فيه الواقعة بين المؤيد والناصر فرج . والشاعر فى البيت وما يليه يورى بمصطلحات العروض .

(٤) بأسرهم : تحتمل معنيين هما من الأسر أو جميعا . والسطا : السطوة والشوكة ، وهى مولدة قبل العصر المملوكى .

وعَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ ماتُوا خيفةً ... فكَأَن هاتيكَ السُّرُوجَ مَقَابِرُ

صَوغَّرْتَ يا شيخُ كِبارَ مُلُوكِهِمْ ... قَهْرًا وَمَا فِى الخَافِقَيْنِ مُكَابِرُ

وكَسَرْتَ ناصِرَهُمْ وَمـا مِقْدارُهُ ... فى مُلْتَقَاك وَرَبُّنَا لَكَ نَاصِرُ

مَدَّتْ سُيُوفُكَ للمُشَارِقِ غَرْبَهَا ... فَأَتَاكَ وهوَ عَلَى الأَسِنَّةِ صَاغِرُ(١)

وصَبِيبَةٌ باشَرْتَ فيهَا وقعـةً ... صَيَّرْتَهَا مَثَلاً وَمَـا هُوَ سَائِرُ

وأَدرْتَ كأْسَ الحَرْبِ بينَ عُصاتِها ... لَمْ يَصْحُ مِنْهُمْ بعدَ ذاكَ مُخَامِرُ

وتَمَزَّقَتْ أَحْزَابُهُمْ أَيْدِى سَبَا ... ولكُلِّ كيْد عندَ ذكْرِكَ فَاطِـرُ(٢)

وَغَرَسْتَ أَغْصَانَ القَنَا بِصُدُورِهِمْ ... والقُضْبُ مِنْ فوقِ الرُّوسِ تُشَاجِرُ(٣)

حتى دَنَتْ تِلْكَ القُطُوفُ لكُمْ عَلَى ... وَرَقِ الحَدِيد وكُل رأْسِ طَائِرُ

واللهِ مَا يَبْدُو بسَيْفِكَ صفحَـةٌ ... قَالَتْ لَهَا الأَعمارُ جاءَ البَاتِرُ

وكَذَلِكَ البَازَاتُ هَذَا وَاقِعُ ... مِنْ سَيْفِكَ المَاضِى وذَلِكَ طَائِرُ(٤)

وتَجشَّمُوا قُلَلَ الجبَالِ وَبَعْـدذا ... لَمْ يَكْتَحِلْ بالعُمْقِ مِنْهُمْ ناظِرُ

وكَشَفْتَ كُرْدِى حِينَ قَالَ لِقَوْمِهِ ... قَدْ دَلَّ فى التقْوِيم أَنكَ ظَافِرُ

فَعَوجْتَ فى وقتِ اللِّقَا تَقْوِيمَهُمْ ... فى يوم طَالِعِهِ وكمْ لَكَ نَـادِرُ

لَمْ يَنْظِمُوا فى السَّهْل بَيْتاً بَعْدَهَا ... والسهلُ يُنكِرُهُ الطبَاعُ النـافِرُ

وكَذَا الفَرَنْجُ سطَتْ عَلَى غِرْبَانِهِمْ ... مِنْ جَوِّ عَزمِكَ فى الحُرُوبِ كَوَاسِرُ(٥)

---

(١) غربها : حدها .

(٢) تمزقت أيدى سبأ : أى كما تمزقت قبيلة سبأ بسيل العرم .

(٣) القنا : الرماح . والقضب : السيوف القطاعة مفردها قضيب .

(٤) البازات : جمع باز وبازى هى صقور الصيد .

(٥) الغربان : لعله يريد بها سفنهم الكبيرة . والكواسر شجعانه المحاربون . — والبيت — بغض النظر عن مقتضيات عصره — كأنه يصور معركة حربية حديثة بين سفن وطائرات . .

ولِسَانُ سَيْفِكَ فى الثُّغورِ بِحدِّه ... قد كَلَّمَ الأَعداءَ منه زَمَاجِر (١)

وغَدَا عَلَى الإِسلامِ مِنْكَ وقايــةٌ ... لعَزيزِ مَنْعَتِهَا يَذِل الكَافِرُ

وتَصَفَّدتْ أَعْدَاكَ فى صَفدٍ وهُمْ ... عُمْىٌ وَطَرْفُ البُرْجِ نَحْوَكَ نَاظِرُ (٢)

والبَابُ يَتْلو الفَتْح حِينَ طَرَقْتَهُ ... عِنْدَ القِتَالِ ولِلْفُتُوحِ أَشَائِــرُ

هَذَا وحَقِّكَ كُلُّهُ فى لَمْحَةٍ ... يا مَنْ لِعَيْنِ الدَّهْرِ رُوحٌ بَاصِرُ

ورَكِبْتَ للجَيْبيْنِ مِنهَا رَكبةً ... لم تُنْس بلْ هِىَ للطُّرُوسِ تذَاكِرُ

وقَنَصْتَ أُسْدًا غَابُهمْ سمْرُ القَنَا ... يا مَنْ لآسادِ المَعَامِعِ كاسِرُ

وأَنَلْتَ من إينالَ مِنهُ حَتْفَــهُ ... عِنْدَ اللِّقَا وكَذَا يُجَازَى الغَادِرُ

ودَخَلْتَ غَزَّةَ والنخِيلُ يَمِيلُ مِنْ ... طلْعٍ وثُغْرُ الطَّلْعِ زَاهٍ زَاهِــرُ

وكَذَا فُتُوحُ الشامِ ذِكْرُكَ خالِدٌ ... فيها وكَمْ لَكَ سِيرةٌ وسَرَائِرُ ... إلخ

١٠ — استنهاض واستجابة

وبلغ صاحب الأندلس محمد الأحمر استيلاء الفرنجة على مدينة سبتة . فبعث إلى صاحب تونس بقصيدة دالية (٣) يستنهضه ويستنصره . فأجابه عنه أبو حامد القفصى بقصيدة لم يوفق فيها . فبعث صاحب تونس إلى مصر رسولا — ومعه القصيدتان — فى طلب قصيدة أخرى مناسبة ليرد بها على صاحب الأندلس . فنظم ابن حجة دالية على البحر والروى يرد بها على لسان صاحب تونس . وتقع فى نحو ستين بيتاً حماسيا يهدد فيها وينذر ، ويوعد ويعد .

وهذا الحادث يدل على مدى شعور العرب فى شتى أمصارهم بعروبتهم وضرورة ترابطهم وتعاونهم فمن دالية ابن حجة قوله :

أَجَابَكُمُ عَزْمٌ سَبَقْنَا بِهِ النَّدَى ... وأَسْيَافُنَا واللهِ كَذَّبَتِ الصَّدَى (٤)

---

(١) الزماجر : جمع زمجر كجعفر ، وهو السهم الدقيق .

(٢) صفد : اسم بلد بالشام

(٣) مطلع هذه الأندلسية : حماة الهدى سبقاً وإن بعد المدى ... فقد سألتكم نصرها ملة الهدى

(٤) الصدى : رجع الصوت .

وأخبارُكُمْ فى رَفْعِهَا إنْ تَقَدَّمَتْ ... إلينَا فإنَّ العَزْمَ قد صَارَ مُبْتَدَا (١)

ولا عتْبَ فى عطفٍ لَنَا نحوَ نَصْرِكُمْ ... وكيفَ وذَاكَ العطفُ أَمْسَى مُؤكَّدا

وهمْزاتُ سُمْرِ الخطِّ موصولة غَدتْ ... بأَرضكُمُ إنْ كانَ قد بَعُدَ المَدَى (٢)

فلا تَنْسُبُوا للعَزْمِ عَنْكمْ تَجلُّدًا ... وعَيْشِكُمُ يَهلِكْ أَسًى إن تجلَدَا

غدا بعدَ هذا اليومِ تَنْسَوْنَ أَرضَكُمْ ... وَلَكِنْ حماةُ العَزْمِ لم تنتظرْ غَدَا

ويأْتيكُمُ جَمْعٌ صحيح عديدُه ... إذَا مَا رآهُ كافِرُ القوم عَدَّدَا (٣)

وإنْ نقَضُوا فى الحرب كاملَ جَمْعِكُمْ ... فكأْسُ الهَنَا يأْتِى تماماً مُبَرِدَا (٤)

وإن صَلتِ الأَسْيَافُ راكعة عَلَى ... محاريبِهِمْ أَمْسَوْا من الرُّعْبِ سُجَّدَا

وكافِرُهُمْ لما تَكَبَّرَ فى الوَغَى ... عليه لهُ عينُ البَقَا إن تَشَهَّدَا

وسِرحَانُهمْ فى النَّقْعِ تُطرَفُ عينُه ... إذا ما رَأَى طرفَ الغَزَالةِ أَرْمَدَا (٥)

ويأْتيكُمُ عيدُ الأَضاحِى عَلَيْهِمُ ... فلا مُسْلِمٌ إلاَّ وَضَحَّى وَعيَّدَا

فلَبَّيْكَ يا مَنْ بالنِّدَا صارَ مُعْلِناً ... وقَدْ رَفَعَ الأَعْلاَمَ فى حالةِ النِّدَا

ومَدَّ يَدًا ترجُو مِنَ الشرقِ نُصْرَةً ... بِعَيْشِكَ فالْمَرْجُوُّ قد بَسَطَ اليَدَا

نعَمْ واشْتَرَيْنَا مِنْكَ ما كُنْتَ بائعاً ... من العَرَضِ الفَانِى بقاءً مُخَلَّدَا

فَلا سيفَ إلا فارقَ الجَفْنَ طرفُهُ ... وطابَ لذاكَ الجفنِ فيه تَسَهُّدَا (٦)

لأَجلِ قيامِ الحَدِّ فى ساحةِ الوَغَى ... على مُسْكِرٍ للفِكْرِ جاءَ مُعَرْبِدَا

---

(١) فى هذا البيت والذى بعده مصطلحات نحوية يورى بها شاعر . وكذلك فى غيرهما .

(٢) سمر الخط : الرماح .

(٣) عديده : عدده . وعدد يعدد : جعله عدة الدهر ، ويبدو أن الشاعر استخدم اللفظ بمعناه فى العامية أى ناح وبكى على نفسه .

(٤) فى البيت يورى بلفظ كتاب الكامل للمبرد

(٥) النقع : الغبار :

(٦) يبدو أن قوله « تسهدا » منصوب على التمييز .



وإنْ لمْ نعالِجْكُمْ بفرسان شرقِنا ... وبالأمسِ قد رُمْتم من الشرق مُنْجدَا

فليسَ كما قلْتُمْ نَرَى السيفَ صارِماً ... ولا الرمحَ عَسالاً ولا الطِّرْفَ أَجْرَدَا (١)

ولا كانتِ السُّمْرُ العَوَالِي لَدَى الوَغَى ... تُثَنَّى ولا البيضُ المَوَاضى لتُغْمَدَا (٢)

وذَا الفَرْضُ لا يُقْضَى إذا فاتَ وَقْتُهُ ... وما نَحنُ عندَ السَّيْرِ ننوِى له الأَدَا (٣)

إذَا ما تَعَبَّدْنَا وغَنَّتْ سُيُوفُنَا ... عَلَيْهِمْ يَظُنُّوا أَنَّ فى القومِ مَعْبَدَا (٤)

فلا هيكلٌ إلاَّ وَقَدْ صَارَ دَارِساً ... وَلاَ بَيعةٌ إلاَّ وتُصْبِحُ مَسَجِدَا الخ (٥)

١١ – حُبٌّ نَبَوِىٌّ

وترنم ابن حجة بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبمدحه فى أكثر من قصيدة. ومن ذلك قصيدته «أمان الخائف» التى نقتطف لك منها هذه الأبيات: قال:

نَبِىٌّ بَدَا فى جَبْهةِ الدَّهْرِ غُــرَّةً ... بِسُنَّتِهِ البَيضاءِ والشِّركُ أَدْهَمُ (٦)

سراجٌ منيرٌ قد هُدِينَا بنُورِهِ ... وللشِّرْك غَىٌّ مِنْ دُجَى اللَّيْلِ أَظلمُ (٧)

ومعدِنُ دُرٍّ عَلَّمَتْنَا صِفَــاتُهُ ... وقد نُظِمَتْ فى عِقْدِها كيفَ نَنْظِمُ

وروضةُ حُسْنٍ فى رَبيعٍ لنا بَدَتْ ... ومَنْبِتها البيتُ العتِيقُ المُعَظَّمُ

له النَّسَبُ الأَعْلَى فيا مادح الوَرَى ... إذا كانَ مدْحاً فالنسيبُ المُقدَّمُ (٨)

ويا منْ غَدَا فى حُب زينبَ هائِماً ... وكانَ له عِنْدَ الرَّبَابِ تَــرنُّمُ

---

(١) العسال: الرمح المهتز. الطرف: بكسر أوله الفرس.

(٢) السمر العوالى: الرماح. والوغى: ضجة الحرب. والبيض: السيوف.

(٣) الأدا: مقصور من الأداء

(٤) قوله: يظنوا، نصبها فى جواب إذا للضرورة. ومعبد: مغن مشهور.

(٥) الدارس: الطامس الذى زالت معالمه.

(٦) الأدهم: الأسود.

(٧) الغى: ضد الرشد والصواب.

(٨) فى العجز تضمين وقد نقله مع التورية فى لفظ النسيب.

لَحُبُّ ابنِ عبدِ اللهِ أَولَى فإِنَّهُ — به يُبْدَأُ الذِّكرُ الجميلُ وَيُخْتَمُ

إِلى قابِ قوسَيْنِ ارتقى ورمَى العِدَى — وكانَ له من قِسْمَةِ السَّعْدِ أَسْهمُ

ولولاَ لَهُ قَسْمٌ من اللهِ ما غَــدَا — لهُ البَدْرُ طوعاً ليلةَ التِّمِّ يُقْسَمُ

بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ يومَ بَدْرٍ تَهَلَّلُوا — بطلعَتِهِ والجَوُّ بالنَّقْعِ مُظْلِمُ

فَيَاسَاكِنِي السَّفْحِ العقيق بأَحمد — خَواتمُ خيرٍ قد أَتَتْ فَتَخَتَّمُوا (١)

رءُوفٌ رحيمٌ بالبهاءِ مُتَوَّجٌ — حليمٌ كَرِيمٌ بالحَيَاءِ مُلَثَّمُ

إِذَا مَا سَرَى فَرْدا لِفرْطِ جَلَالِهِ — يَقُولُ الوَرَى قَدْ سَارَ جيشٌ عرَمْرَمُ

ويُشْرِقُ مِنْ تَحْتِ اللِّثَامِ جَمَالُهُ — لأَنَّ ضِياءَ الصُّبْحِ لاَ يُتكَتَّمُ

تَرَى العُرْبَ خُرْساً عنْدَ مُعْرَبِ لفظِهِ — وكَلَّمَهُ ضَبُّ الفَلاَ وهو أَعجمُ (٢)

لنا السَّنَدُ الأَعْلَى بنقلِ حَدِيثه — عَلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِنَا قد تَقَدَّمُوا

صحيحُ البُخَارِي قد كَسَرْنَا بِهِ العِدَى — وكمْ كافرٍ دُسْنَا بما قالَ مُسْلِمْ

دَعُوا ما ادَّعَاهُ الشِّرْكُ فى أَبنيائهم — وقُولُوا وغَالُوا فى المَقَالِ وعَظِّمُوا

نَبِيٌّ كَرِيمٌ قَدْ عَلِمْنَا بِأَنَّ مَــا — عَلَى اللهِ مِنهُ فى البَرِيَّةِ أَكرمُ

لَوِ اخْتَارَ مُلْكَ الأُفْقِ وَدَّتْ شُمُوسُهُ — تَصِيرُ دَنَانِيراً بِهَا يُتَكَرَّمُ

وكانَ يقولُ البَدْرُ فى التِّمِّ لَيْتَنِى — بوجْهِي لهُ فى لَيْلَةِ النِّصْفِ دِرْهَمُ (٣)

وأَصحابُه القومُ الَّذِين حدِيثُهُمْ — طِرَازٌ عَلَى رَقْمِ الأَحَادِيثِ مُعْلَمُ

شموسٌ تَسَامَوْا بالتقَى وجِبَاهُهُمْ — إذا سجَدُوا فى ظُلْمةِ الليلِ أَنجُمُ . إلخ

والله أعلم

---

(١) العقيق : موضع بالمدينة . ويبدو أن الصواب « فياساكنى سفح العقيق » .

(٢) الفلا : جمع فلاة وهى المفازة والقفر .

(٣) فى التم : بكسر التاء أى ليلة تمامه وهو بدر .

المراجع

١ – ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى
٢ – خزانة الأدب لابن حجة الحموى
٣ – جنى الجنتين لابن حجة الحموى
٤ – تأهيل الغريب لابن حجة الحموى
٥ – كشف اللثام لابن حجة الحموى
٦ – قهوة الإنشاء لابن حجة الحموى
٧ – الضوء اللامع لشمس الدين السخاوى
٨ – صبح الأعشى للقلقشندى
٩ – بدائع الزهور لابن إياس الحنفى
١٠ – الخطط للمقريزى
١١ – النجوم الزاهرة لأبى المحاسن
١٢ – الانتصار لابن دقماق
١٣ – حسن المحاضرة للسيوطى
١٤ – طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى
١٥ – معيد النعم ومبيد النقم للتاج السبكى
١٦ – التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى
١٧ – جلاء العينين للألوسى
١٨ – المقدمة لابن خلدون
١٩ – شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى
٢٠ – الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى
٢١ – إغاثة الأمة للمقريزى
٢٢ – طيف الخيال لابن دانيال الموصلى
٢٣ – المدخل لابن الحاج
٢٤ – تاريخ حماة للصابونى
٢٥ – معجم البلدان لياقوت
٢٦ – ديوان ابن نباتة المصرى
٢٧ – تقويم النيل لأمين سامى
٢٨ – تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان
٢٩ – معجم بروكلمان
٣٠ – عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سلم

فهرست

الفصل الأول

عصر تقى الدين بن حجة الحموى

الفصل الثانى

تقى الدين بن حِجة الحموى فى عصره

الفصل الثالث

جوانب تقى الدين بن حجة الحموى



صفحة

الفصل الرابع

منتخبات من آثار تقى الدين بن حجة الحموى